سلسلة الفتوحات العزمية

(٢١)

الدين الجديد

الوهابية والوهابيون ١٨١١-١٨١٩

الباب الثامن من كتاب
(مصر فى القرن التاسع عشر)

تأليف
إدوارد جوان
تعريب
محمد مسعود

الجزء الثانى

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

جميع حقــوق الطبـــع والنشـــــر والتصـــوير
والاقتبـــــاس والترجمة والنقـــــل محفـــوظة

الطبعة الأولى

رَجَبٌ ١٤٢٧هـ - أغسطس ٢٠٠٦م

رقم الإيداع
١١٩٩٨/ ٢٠٠٦

الترقيم الدولى
٩٧٧-٥٩٧٣-٧١-٤

محتويات الكتاب

الموضوع		الصفحة
الافتتاحية:	**لماذا الدين الجديد؟**	**١٣٢**
بقية الفصل الثالث:	ابن سعود يغدر.. وإبراهيم ينتصر	١٥١
	البدوى أبو سيف.. والفرنجى أبو مدفع	١٥٨
	ابن سعود يطلب الصلح	١٧١
	أخلاق إبراهيم باشا وأخلاق ابن سعود	١٨٥
	فشل الوهابيين فى الدرعية	٢٠٤
	ابن سعود يقبل يد إبراهيم باشا	٢٠٨
	ابن سعود يسلم ما سرقه والده	٢١٢
	إعدام ابن سعود بعد بيان التهم	٢١٤
الفصل الرابع:	**دراسة تحليلية للمعسكرين المصرى والوهابى**	**٢٣٢**
	الوهابية قتلة المسلمين	٢٤٢
الخاتمة:	**نتائج الفتح بمصر والآستانة**	**٢٤٥**
	التبرك بالعائدين من الجهاد	٢٥٥

الافتتاحية

لماذا الدين الجديد؟

الحمد لله رب العالمين، جعل ألفة القلوب دليلَ حجة علام الغيوب، وأشرق بأنوار المحبوب لمن صفَّاهم لنيل المشروب، سبحانه قادرٌ يغير ولا يتغير، ويحول ولا يتحول. هدى قلوب الأحباب لنصرة الحق، وجذب أفئدة الطلاب لنوال حضرة التواب. سبحانه هو القريب قرب عطف وحنان.. نسأله أن يحوّل حالنا إلى أحسن حال، وأن يجعلنا ممن أُلفت قلوبهم، واتحدت أرواحهم لزهوق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

والصلاة والسلام على خير رسول أرسل، وأكمل نبى بعث، حبيب القلوب، ونور الأبصار، وكعبة الأرواح، وميزاب الفيض الأقدس، ومهبط الوحى الأنفس.. سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله، وجملنا بحلل أهل معيته ﷺ بكامل صفاتهم التى تفضلت عليهم بها، ومدحتهم عليها، فإنك يا ربنا- ولك الحمد- تفضلت علينا،

وجعلتنا من أمة الإجابة لجنابه المحمدى ﷺ، ومنحتنا الحب للإيمان، وزينته فى قلوبنا، فنسألك يا صاحب الفضل العظيم، المزيد من إحسانك، والمعونة على شكر مننك سبحانك، إنك مجيب الدعاء..

أما بعد:

آن الأوان للوقوف أمام الأفكار الخاطئة بمنطق المواجهة والتصدى، وهى نقلة جديدة، توائم ما حدث لعالمنا الإسلامى من تداعيات، لم تحدث فى تاريخه القديم والحديث على السواء.

هذا التحدى لم يكن له وجود إلا بعد سلسلة الكوارث الأخيرة، سواء ما أدى إلى استنساخ أنظمة متردية ومتعاونة كل التعاون فى حضن الغرب الأمريكى على وجه جديد وأسلوب جديد، أو مابدا من سلسلة الكوارث الإنسانية المتعاقبة فى عالمنا الإسلامى فى بره وبحره وجوه على السواء، والتى لم يسلم منها حتى الأماكن والأزمنة المقدسة.

من حقنا الآن قبل أى وقت مضى، أن نقف مع الأفكار

التى حكمت عالمنا الإسلامى طوال هذه الحقبة السوداء من تاريخه، فإنها وحدها المسؤولة عن الأمانة المنوطة بها، بما تمثله من روح واعية ومدركة ومتفاعلة.

ولقد عرفت أيها القارئ الكريم من سلسلة الكتب العزمية السابقة انفراد محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة (النجدية) بمقالته عن المجموع الإسلامى، واستقلاله بأفكاره الشاذة دونهم، بما أقدم عليه ابتداعاً واختراعاً من تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية خلافاً لما نزلت لأجله، وعكساً لما أشارت إليه.

فإنه بهذه الجرأة العظيمة والإقدام المريع العارى عن روح التبصر والتعقل، وبحماية آل سعود، قد أورد نفسه موارد الهلكة، وساق مقلديه إلى أودية سحيقة، متحملاً أوزارهم، وأوزار من يضلونهم إلى يوم القيامة.

وهو عندما أقدم على ذلك لابد وأن تكون قد سوَّلت له نفسه القدرة على الاجتهاد فى دين الله غروراً وطيشاً، فاندفع فى تيار هواه غير واقف على ما يحتاجه المجتهد من الصفات حتى يصح أن يكون مجتهداً، وانقسم الناس بشأنه- إلا المرتزقة من أموال النفط- إلى عدة أقسام:

– فمنهم من نسبه إلى الجهل.

– ومنهم من نسبه إلى التجاهل عمداً رغبة في الشهرة، وطمعاً بالأثرة.

– ومنهم من نسبه إلى العمالة لوزارة المستعمرات البريطانية.

– ومنهم من نسبه إلى الجذور اليهودية التي ينتمي إليها، وبالتالى فما قام به هو تخريب للإسلام خدمة لأصوله.

وبعد صدور الجزء الأول من كتاب (الدين الجديد) تواردت الأسئلة: لماذا الدين الجديد؟ أليسوا ينطقون بلا إله إلا الله محمد رسول الله؟.

والجواب: إن تعاليم الإسلام هى ما أمر به رسول الله ﷺ وآله، ومن يتعداها فهو مفتئت على رسول الله ﷺ وآله، وبالتالى فهو يرى نقصاً فيما أمر به رسول الله تبليغاً عن رب العزة سبحانه وتعالى، وما فعله ابن عبد الوهاب ومقلديه، يؤكد مخالفتهم لتعاليم الإسلام، لتحليل قتل المسلم وسبى نسائه وسرقة ماله، والدليل على ذلك ما يلى:

أولاً: قال ﷺ: (بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت) [رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: وإن آمن بهذه الأركان الخمسة فهو مشرك حلال الدم والمال، إذا بقى مصراً على الاستشفاع بالأنبياء والتوسل بالصالحين (راجع كتاب الدرر السنية وثيقة تكفيرية).

ثانياً: قال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) [رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: إن الإقرار بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لا يعصم أرواحهم ولا أموالهم ما داموا يتوسلون ويستشفعون.

ثالثاً: قال ﷺ: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً من قلبه إلا حرَّمه على النار)

[رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: وإن قالها صادقاً من قلبه فهو مشرك ما لم يقلع عن التوسل بالأموات.

رابعاً: قال ﷺ: (غلظ القلوب والجفاء فى المشرق، والإيمان فى أهل الحجاز) [أخرجه مسلم].

وهؤلاء يقولون: الشرك فى أهل الحجاز.

خامساً: قال ﷺ: (الإيمان يمان، والكفر قبل المشرق) [رواه مسلم].

وهؤلاء يقولون: الكفر والشرك فى اليمن، والإيمان فى نجد.

سادساً: قال ﷺ: (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فى بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها) [أخرجه أحمد، والترمذى، وصححه النسائى وابن ماجة].

وهؤلاء يقولون: إن أهل مكة يعبدون الأصنام وهم مشركون.

سابعاً: قال ﷺ: (على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال) [رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: إن الشرك داخل فيها.

ثامناً: قال ﷺ: (إن الشيطان قد أيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب، ولكن رضى منهم بما دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات) [رواه الحاكم وصححه، وأبو يعلى والبيهقى).

وهؤلاء يقولون: إن جزيرة العرب تعبد الأصنام والأوثان، عدا نجدهم المحبوبة.

تاسعاً: قال ﷺ: (إنى لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوا فيها فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم) [رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: إن جميع من فى الأرض من المسلمين مشركون لتوسلهم بالأموات، ما عداهم.

عاشراً: قال ﷺ: (اللهم بارك لنا فى شامنا، اللهم بارك لنا فى يمننا، قالوا: يا رسول الله وفى نجدنا، قال: هناك الزلازل والفتن وبها يطلع الشيطان) [رواه البخارى ومسلم].

وهؤلاء يقولون: إن الشام واليمن مقر الشرك، وأن نجداً دار الإيمان تجب الهجرة إليها.

هذه الأدلة العشرة كافية لإثبات أنهم يخالفون رسول الله ﷺ، ويفتئتون عليه، فهل يستحقون أن نلقبهم بأصحاب الدين الجديد؟!!.

هذا.. وقد كنا بيَّنا فى الجزء الأول من كتاب (الدين الجديد) المؤامرة الوهابية على مصر، بتكوين جماعات وهابية تكفر التدين المصرى الصوفى، حتى تحدث فتنة يقتل فيها المصرى أخاه، وذلك انتقاماً من قيام محمد على وأولاده بتطهير الجزيرة العربية من فتنة الوهابية قتلة المسلمين، ولصوص الحجرة النبوية الشريفة.

وفصَّلنا أحداث الحملة المصرية الأولى للقضاء على الوهابية بقيادة طوسن باشا، وبدأنا الحديث عن الحملة المصرية الثانية بقيادة إبراهيم باشا، وسوف نواصل فى هذا الجزء إكمال هذه الحملة المباركة، ونتائجها الميمونة.

نسأل الله أن يجمع أمرنا، ويهدى ضالنا، ويوفقنا لما يحب ويرضى.

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

بقية الفصل الثالث

إبراهيم باشا يرتب الجيش ويعاقب الخارجين

ولما أدرك إبراهيم جنوده نقل العسكر إلى أبعد من موقعه بستين كيلو مترا، أى إلى قرية (السويدرة) بين ينبع وجدة واتخذها مستودعا وقتيا للمؤن والذخائر، ثم سير منها إلى الحناكية القوات التى لم تكن هناك حاجة لبقائها بها، وكانت السويدرة قد استولى المصريون عليها قبل سنوات قليلة بدون أن يسفكوا قطرة دم، لأن شيوخ العربان الذين خدعهم عبد الله بن سعود بحيلته ونفاقه أبوا أن يوافقوا إبراهيم باشا بما طلبه منهم من الجمال والمؤن، بل ولَّوا له ظهورهم مدبرين، وأخذوا يعيثون فى البلاد ويرتكبون الفساد بقطع المواصلات وسلب القوافل القاصدة من ينبع إلى مكة والمدينة، وكان مما يتحتم فى بداية حملة عسكرية كهذه منع سريان عدوى القدوة الرديئة بين الناس بإظهار الشدة والقسوة لهم، فبادر إبراهيم باشا بإنفاذ ألفى رجل من المشاة والفرسان لمعاقبة أولئك العصاة، وكانوا قد استعدوا للدفاع على أثر علمهم

بتحرك الجيوش لمقاتلتهم.

وعلى مسيرة يومين من المعسكر المصرى ظهر عربان طَلُوا أجسامهم وعيونهم بزيت مزج به مسحوق أسود، ووضعوا على جباههم طاسا حديدية، وشدوا رؤوسهم بسيور من الجلد تهبط من تحتها شعورهم السوداء على أكتافهم، وحملوا فى نطاقهم ذخيرة الخرطوش والجنبية والسيف الذى يلازمهم حتى إذا أرادوا شرب القهوة، وقبضوا على (الكلنج) ، أى: الكتلة ذات المقبض الخشبى والرأس الحديدى والقطاعة، وهى رمح خفيف قصير محلى الطرف الأعلى عند مأخذ السنان بعقدتين تنبعث منهما أشرطة قماش أحمر مضفور، وكان يسير فى الصفوف الأولى من جيش العدو الملابيس وهم فرسان يلبسون الدروع أو القنابيز، وكان مع كل منهم ما يلزمه من الماء والغذاء ويتبع هؤلاء الفرسان أو الخيالة، (الركوب) أى العساكر الهجانة، وكانوا يحدون إبلهم حثا لها على السير، بمعنى الدعاء إلى الله أن يصونها من الأخطار، ويقوى قوائمها حتى تكون فى صلابتها كقضبان النحاس.

وكانت هذه الدواب كلما سمعت صوت الحداء ازدادات نشاطا وهمة، وتحفزت تحفزاً للسير إلى الأمام، وكانت نساء المحاربين وهن على ظهور الجمال يصْحنَّ الحنطة ويعْجنَّ الدقيق ويخْبزنَّ فى فرن صغير من الطين يوقدنه بالقصل، أما المؤخرة فكان يتألف منها المتراس وهم المشاة مسلحين بالطبنجات الكبيرة وبأيديهم الدرق، كل درقة قطر دائرها ١٨ إبهاما، وهى متخذة من جلد الجاموس المقوى بصفائح الحديد، وما أبصروا بالعدو حتى صاحوا صيحات حادة وضربوا الطبل وتغنوا بأناشيد العساكر التى من أشهرها الحدو، وفيه ما معناه : (أيها الموت ارفع غضبك عنا! أيها الموت صبرا حتى ننتقم للدم المسفوك!) إلخ. وكان المشاة يتلظون شوقا للقتال فى المقدمة فاندفعوا إليها، وبعد أن أخذوا المواقع الملائمة لهم بين صفوف الفرسان بدأوا يثبتون سلاحهم على الأحجار البارزة للإجادة فى إصابة المرمى، وانسلخت منهم فصيلة طيارة للتنقل يسمونها فصيلة الغزو، فانطلقت تناوش المصريين، واشتد القتال عنفا بعد ذلك، فاشتبكت فيه فرق الفريقين على اختلافها وحمى وطيس القتال زمنا لجأ

العرب بعده إلى الفرار جاعلين أطراف الأسنة من خلفهم، يرهبون بها الظافرين المقتفين لآثارهم، وظلوا فى إدبارهم نصف ساعة فوجدوا الزاملة منتظرين على الهجن فى أحد الأودية عند إحدى النقط الثلاث التى اتفق على الارتداد إليها فى حالة الانسحاب أو الهزيمة.

وحينما رأى النسوة المحاربين مرتدين لم يتلقينهم بزغاريد الفرح والابتهاج كعادتهن، أما المصريون فمازالوا بالمنهزمين ملاحقة حتى بلغوا إلى دورهم حيث تفرغوا للنهب والتدمير ردحا من الزمن، عادوا من بعده إلى المعسكر بقطعان الأغنام وجم غفير من النساء والأطفال، ولكن إبراهيم باشا لم يلبث أن رد هؤلاء على أهليهم، ولم يجرأ العربان بعد هذه المعركة العنيفة على استئناف القتال ولا على النهب والسلب، فجاءوا يسترحمون القائد المصرى، ويخضعون للكلف التى يفرضها عليهم مهما بلغت.

وبعد أن مضى ١٥ يوما على الجنود فى السويدرة، استأنفوا السير فى الطريق المؤدى إلى القسيم وهو قريب من يثرب التى سميت منذ ظهور الإسلام بالمدينة فقط

إشعارا بجلالها وبيانا لأهميتها وعلو قدرها، وكان العرب فى الأندلس يسمون بالمدينة كثيرا من المدائن التى يميلون إليها ويؤثرونها على غيرها، ولا تزال تسمى حتى الآن بهذا الاسم مثل (مدينة كلى) و(مدينة دلريوسكو) و(مدينة سيدونيا) وكما كان قدماء المصريين يسمون طيبة وهى الأقصر الآن، (طباكى) أى المدينة، والرومانيون يسمون رومية (أوربس) أى المدينة، ويونان الدولة الأخيرة يسمون القسطنطينية (بولييس) أى المدينة.

وبوصول الجيش إلى المدينة لاحت الفرصة للعساكر أن يضرعوا إلى الله بطلب التأييد لهم فى حرمه الذى اختاره لنصرة دينه، نعم إن زيارة هذا الحرم لم تكن من الفروض الإلهية المحتمة كالحج إلى بيت الله الحرام ولكنها من الأعمال المحمودة لدلالتها على الورع والتقوى، قال محمد أديب فى كتابه (دليل الحاج): إن الصلاة فى الحرم المدنى أفضل منها فى باقى الأماكن المقدسة، ولهذا السبب ترى قوافل الحجاج تقضى بالقرب من الضريح النبوى أربعة أيام أو خمسة فى ذهابها إلى مكة أو فى عودتها منها، وما من مسلم صادق الإيمان من

رجال الجيش إلا ويحفظ عن ظهر قلب الأربعين حديثا التى تدخل حافظها فى شفاعة النبى وتنقذه من نار الجحيم، وامتاز المغاربة بالإخلاص فى التعبد خصوصا وأن فى المدينة روضة الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكى الذى يتمسكون به هم والدكارنة من أهل السودان، وأقام إبراهيم بالمدينة أسبوعين كاملين أنفذ بعدها إلى الحناكية ٤٠٠ فارس من طلائعه ليحتلوها بعد أن دمرها الوهابيون قبل انسحابهم داخل نجد، وكان المصريون فى حملتهم الأولى قد حصنوها تحصينا جيدا.

وفى أول ديسمبر شرع فى إنشاء استحكامات وقلاع بهذا الوادى الملائم للاجراءات الحربية لاحتوائه عددا عظيما من أشجار النخل وبعض المستنقعات وعيون الماء العذب التى تروى ما حولها من الأراضى الخصبة، فلما حصن إبراهيم باشا هذا المكان لبث ينتظر فيه ورود الإمدادات من الفرسان والمدافع، وهى الإمدادات التى أخذ والده يبعث بها تباعا لتحل محل الفصائل التى يقضى التدبير العسكرى بجعلها على حراسة النقط الخلفية احتفاظا بخط الاتصال.

وكان الزعيم الوهابى قد عقد النية على الدفاع عن المدن وإزعاج القوافل على يد حلفاؤه من العربان، ولكن كانت تبدو على هؤلاء علامات الامتعاض والتذمر والإحجام عن اقتحام مدفعية علموا مبلغ ضررها من قبل، فنشأ عن ترددهم هذا شقاق جاء غانم شيخ قبيلة حرب على أثره إلى الباشا لمقابلته ومفاوضته، وقبيلة حرب هذه معروفة ببسالتها فى القتال، ومع أنها أقل نفرا وأضعف شوكة من قبيلة عنيزة إلا أنها منتشرة بالأراضى الواقعة بين القسيم ومكة فيما عدا الجزء الصغير الذى تشغله قبائل مطير وحطيم، وهى إذا هبت للقتال اجتمع من رجالها أربعون ألف مقاتل، وكان الخيالة منهم قليلين جنوبى المدينة ولكنهم يسلحون عادة الشطر الأكبر من شبانهم، حتى ليندر أن تجد شابا غير مسلح ببندقية، وكانوا لثروتهم التى يكفلها لهم مرور قوافل مصر والشام بأرضهم يملكون مفتاح الحجاز الشمالى. ولم يسبق لهم أن يتنحوا عن هذا المكان لغيرهم قبل غارة الوهابيين عليهم وخضوعهم لسطوتهم، بعد أن خضع لها قبائل الصحراء جميعا، ومع متاخمة أراضيهم لحدود قبيلة جهينة– التى

استمالها طوسن باشا إلى محالفته فى سنة ١٨١٢- فقد كانوا يرفضون كل ما يقترحه هذا الأمير عليهم حتى اليوم الذى عقدت فيه معاهدة الرس. وكان غانم يمنى نفسه حينما تقدم لخدمة إبراهيم باشا باسترداد الأراضى التى أجبر على تركها للدولة العثمانية.

الجيش المصرى فى نجد

واستمال إبراهيم بهداياه كثيرين من العربان أصحاب الجاه والنفوذ، لأنه كان يرى الفرصة ملائمة للإيغال فى البلاد وتدريب عساكره على الحياة فيها، فتحرك يوم ٢٧ ديسمبر فى جيش مؤلف من ١٨٠٠ فارس مزودين بالمؤن لمدة عشرة أيام، وانضم إليهم غانم فى ٥٠٠ من العربان الذين استجاشهم فى الطريق، وسار فى الطليعة جماعة من نجد الغربية كأدلاء وجواسيس، فدخلت هذه القوة نجدا فى ١٧ يناير ١٨١٧ بعد مشاق مضنية وحرمان متلف انتهى بسرور الفوز، ولم يتجاوز عدد من فقدوا فى الطريق عشرين رجلا، فوصل الجيش إلى الموقع الذى وصل إليه فى ذلك اليوم كاملا تقريبا،

ويصحبه ٨٠ جملاً و٤٠٠٠ من الضأن، ومقدار كبير من المهمات.

وقد دهش الموالون للوهابيين لهذه المجازفة، واستقر فى أذهانهم بعد أن ظنوا بالفرسان المصريين العجز عن تكبد المشاق والتغلب على المصاعب، أنهم جديرون بالمدح والإعجاب، ولم يلبث مشائخهم بعد أن حسبوا لهذه الغارة عواقبها أن سارعوا إلى قيادة الجيش للمفاوضة، فاشترط إبراهيم باشا عليهم التعهد بتوريد وسائل النقل كلما مست الحاجة إليها، واغتنم فرصة وجودهم عنده لعرض الفرسان والمشاة عليهم فقاموا أمامهم بأداء الحركات العسكرية وإطلاق المدافع والضرب بالسلاح، ومن دلائل لباقته ولطف سياسته أنه جعل الفرقة الواحدة تقوم أمامهم بتدريبات متنوعة فى أدوار متفاوتة، فكان يبدو للرائى أنها فرق بقدر عدد هذه الأدوار، وأنها ملمة تمام الإلمام بأحوال الحرب.

تكريم إبراهيم باشا وقتله للفتن

وفى ١٩ يناير ١٨١٧ تلقى إبراهيم باشا من القاهرة

نبأ إنعام السلطان عليه بالباشوية ذات الثلاثة الأذناب، أى: بالرتبة التى تخوله حق حمل ثلاث خصلات من شعر الخيل لا خصلتين، فأوفدت المدينة الوفود من عظمائها لتهنئته، فبعد أن تلقى منهم التهانى عاد معهم إلى المدينة حيث أقيمت الأفراح ومعالم الزينات إيذانا بذلك، وألبسه المفتى شارة الترقية، وبعد هذا الاحتفال الذى رفع مكانته فى العيون وألقى هيبته فى النفوس عاد إلى معسكره.

وكانت قد طرأت فيه حوادث استدعت تعجيل الأوبة فتلافاها بحكمته وقوة إرادته، إذ ظهر أن بين الجيش جماعة ثبتت فى حقهم تهمة التجسس، فكان الإعدام نصيبهم وتواترت إشاعات بانقطاع الصلات السياسية بين الروسيا والباب العالى، فجزع الجنود وأيقنوا أن مركزهم فى الجيش أصبح غير ثابت، فأخذوا يطالبون بمرتباتهم، وتدارك إبراهيم الفتق قبل استنهاره، فدفع لهم حقوقهم، وكانت حرارة الشمس المحرقة نهارا ورطوبة الجو الشديدة ليلا وقلة الملابس، وندرة الماء الصالح للشرب، والحرمان من ملاذ الحياة، وتفشى الحميات والدوسنطاريا بشكل وبائى، مما حمل العساكر على التذمر وخور

العزيمة وضيعة الرجاء، وكان المرضى والمصابون يرسلون تباعا إلى الحناكية، وكان الأطباء بالرغم مما أبدوه من الهمة والنشاط لا يستطيعون استئصال شأفة هذه الأدواء القتالة، فكثر عدد الوفيات، وأظهر الباشا إزاء هذه الكوارث جلدا وصبرا عجيبين وكان قد وصل إليه مؤخرا ثلاثة مدافع، اثنان عاديان وواحد من طراز الهاون، يظهر أنها مما تركه الفرنسيون قبل جلائهم عن مصر، فقد شوهد مكتوبا على مؤخراتها (صب فى دار صناعة باريس سنة ٢ من الجمهورية.. حرية.. ومساواة)، وكان معها مائتان من المدفعيين، ولكن الظروف التى أصبح الجيش محاطا بها كانت تستدعى كثرة العساكر لا كثرة المدافع لسد النقص الحادث بالمرض والموت، وقد سأل إبراهيم والده أن يوافيه بألفى مقاتل، وباشر عقد معاهدات جديدة مع العربان. وألزم الأصحاء- ليمنع سريان العدوى فى معسكره بتلك الأمراض- بحمل السلاح، وجعل العربان والمصريين جيشا واحدا، وكان عدد الأولين ١٢٠٠ والآخرين ١٥٠٠، فلما كان يوم ٥ ربيع الثانى ١٢٣٢ الموافق ٢٢ فبراير ١٨١٧ زحف على الرس

عاقدا النية على أخذها مداهمة، غير أن تـوالى هطـول الأمطار حال دون وصول جيشه إليها، وقد أوغـل فـى الصحراء، فى الموعد الذى ضربه، فتراجع به خلوا مـن المؤن ومكتفيا بأكل الشعير من غير طحن لسد الرمـق، على أنه تمكن من إخضاع قبائل كثيرة فى الطريق وأخذ أسرى عديدين وغنم مقدارا وافرا مـن الجمـال، وكـان الجيش بحاجة إلى الراحة فقرر الباشا ملازمـة الحناكيـة حتى الخريف، ولما كان مفطوراً على الـشهامة وحـب الخير، فأنه لم يدع وسيلة إلا اتخذها لوقاية الجنود من شر الأمراض وتوفير الراحة والرفاهية لهم، فـأمر بإنـشاء بيوت كبيرة من الخشب ليتقـوا بالالتجـاء إليهـا شـر الاختلافات الجوية، وما من يد عاملة إلا واشتركت فـى إتمام هذا العمل حتى يد الأمير نفسه، واستغرق إنجاز هذه الأعمال شهرين، وقد ظهرت فوائـدها حـالا إذ زالـت الأمراض وقلت الآلام بالتماثل للشفاء.

ابن سعود يغدر.. وإبراهيم ينتصر

أما عبد الله بن سعود الذى كان الموالون له يعرضون

عنه بالتدريج على أثر ما وقع فى نفوسهم مـن الـروع عقب خروج الباشا مرتين للقتال على النحو السالف، فقـد أمر بتأجيج نار القتال قبل وصول المدد من مصر، ونمى هذا الخبر إلى إبراهيم باشا فهب للقتال من فوره ليعـوق احتشاد الأعداء وانضمام القبائل إلـيهم، ويـستميل إليـه القبائل المتربصة بحدود الصحراء بحجة الحياد، وما هـو الحياد فى الحقيقة، وإنما هو التربص والتريث للانـضمام إلى الفريق الغالب، ولقد كان الفوز فـى تلـك المعـارك للفرسان المصريين- كما كان لها فى المعارك السابقة- إذ قتلت أكثر من ٨٠٠ مقاتل من العـدو، وغنمـت ٢٠٠٠ جمل من الماشية، وكان هم إبـراهيم باشـا أن يـستعين بالمظاهر الدينية فى حرب اكتسبت صفة القداسـة، لـذا سارع بالذهاب إلى المدينة ليحمد الله فيها على مـا أولاه وجيوشه من التوفيق للظفر، ولما أتم هذا الواجب عاد من المدينة فى ٢٠ أبريل، ومما جذب إلى ولائـه العربـان الموالين للوهابيين إكرامه مثوى غانم شيخ قبيلـة حـرب وغيره من الشيوخ، ووعده إياهم بعدم فرض الجزيـة أو الكلف عليهم، وبأن يدفع لهم ثمن ما يوردونه إليه بغيـر

مماسكة، دع لقاءه الناس بالبشاشة وسعة الصدر والسخاء. ولقد بلغه أن عبد الله بن سعود ينهب القبائل التى تأبى التوجه إلى الرس ويزحف فى ٢٠٠٠ مقاتل لمهاجمة المصريين، ويدعو جميع رعاياه إلى شد أزره بمالهم وسلاحهم، ويمنع الذين فرض عليهم القتال من استبدال أنفسهم من غيرهم مدة ٤٠ يوما فى مقابل عشرة قروش وافية، ويأبى الإجازات مهما قصرت مدتها وتسريح الذين انقضت خدمتهم فى الجند وهى اثنى عشر شهرا، ولا يعفى من هذه الخدمة العزب ولا المتزوج ولا رب العائلة مادام عمره لا يقل عن الثامنة عشرة ولا يتجاوز الستين، وأنه يقول بمناسبة حشد هذا الجيش: (ليس فى نيتنا إحصاء المنتظمين فى سلك الجيش بل المتخلفين عنه)، ويقدم إلى المحارب الفقير من بيت المال الدابة والسلاح، ويلزم الغنى بهما من عنده، وأن مما يقدمه بيت المال للجميع بلا استثناء البارود والرصاص ومعدات القتال، وأنه قرر أن يتقاضى الفارس مرتبا شهريا وعلف جواده، وأن لا يعطى مرتب قط لا للمشاة ولا للركوب (راكبى الهجن)، وأن تكون ذخيرة المقاتل وأدواته قربة ماء،

وأخرى تحتوى على ١٠٠ رطل دقيق و٦٠ رطل تمر و٢٠ رطل زبدة وغرارة حنطة أو شعير للجواد أو الجمل، ويجهز كل مقاتل بمؤنة تكفيه خمسين يوما على نفقته، وبسلاح مؤلف من خنجر وسيف وجبيرة على نفقته، وببندقية بشريط إذا كان من المشاة، وإلا فبرمح وطبنجتين، وفى مقابل ما أعطى من ذلك يكون له الحق فى القيمة التى يغنمها من الأعداء بعد أن يؤدى الخمس منها إلى بيت المال. أما الأمراء فبعد أن ساروا تتقدمهم الأعلام والبيارق ويصحبهم كاتبان وإمام للوعظ وحسم المشكلات والمنازعات، واجتمعوا على سبيل الخدعة فى نقطة مضادة لاتجاه العدو لكى إذا سار فى أثرهم واصلوا الزحف الحثيث للانقضاض عليه. وكانت طليعتهم شرذمة مؤلفة من أربعين فارسا تقدم خمسة وعشرون منهم الجيش الأصلى حتى ابتعدوا عنه بمسافة ٨٠ كيلو مترا، وفى ليلة الارتحال للقتال جهزت كل أسرة من أسر الجنود لرجلها طعاما من التمر المحمر فى السمن للفطور، وطعاما آخر من التمر المعجون بالدقيق والمنضج على حرارة الرماد بعد قطعه قطعا مستديرة

كالخبز لطعام المساء. ومما قرره الوهابى حفر الآبار إذا شح الماء، فإذا لم تأت الآبار بالماء الصالح شربت ألبان النوق، وأكل لحم الجمال إذا قلت الأطعمة بأن يذبح منها الأضعف فالضعيف، وأن يحمل كل جمل من هذه الجمال رجلين من المشاة، حتى إذا شب ضرام القتال يكون الجنود من القوة والانتعاش بحيث يقدرون على تكبدها.

الحال فى المعسكر الوهابى

وصل الوهابيون على هذا الترتيب إلى إحدى الآبار وكانوا عشرة آلاف، فنصبوا خيامهم وبيوت الشعر السوداء وجعلوا سرادق زعيمهم فى الوسط، ورفعت الأثقال عن المائتى راحلة المخصصة للنقل، ونشرت راية الأمير فوق سرادقه، ووقف الفرسان حول المخيم على شكل الدائرة واصطف حراس الشرف وهم الفرقة الوحيدة الدائمة من الجيش الوهابى والمؤلفة من ٣٠٠ عربى، يشترط فى قبولهم أن يكونوا ممن امتازوا بعمل جليل، ومن العادة أن يعطى لكل منهم ما يحتاجه سنويا من القمح والزبدة والتمر مع جواد كريم بما عليه من اللبس، أى:

الصوف، الذى لا تنفذ منه الرماح ولا تعمل فيه السيوف، وما من واقعة اشتركوا فيها أو عمل دعوا لأدائه وكان التوفيق رائدهم فيه، وهذا ما دعا الأمير إلى الاحتفاظ بهم احتفاظ المرء بأنفس ما عنده، واتخاذه إياهم جندا احتياطيا للقتال لا ترسل منه إلا فصائل قليلة لتعزيز الضعيفة، وكان الجيش الوهابى قد عين مراكز الحرس والتربص الأمامية ووافاها بكلمة (سر الليل)، وقرر أن لا يخلفها غيرها فى العمل إلا بعد أربع وعشرين ساعة، وجعلها على مسافة أربعة كيلو مترات منه، وكان محتما على رجال هذه المراكز أن لا يناموا إلا فى النهار، وأن لا يتناوبوا الحراسة إلا خمس مرات فقط، والذين تنتهى نوبتهم يبرحون المعسكر لأداء فروضهم الدينية حيث شاءوا، وكان وضوؤهم تيمما يباشرون الصلاة بعده.

وفيما بين غروب الشمس وشروقها كان العساكر يتلون القرآن ويتسامرون بذكر الحوادث الماضية، وكان أكثر حديث عبد الله اهتمامه بحوادث المستقبل، فلقد انتهى إليه أن الباشا أنفذ فى ٢٦ أبريل جيشا بقيادة أزون على مؤلفا من ١٠٠٠ راجل و٤٠٠ فارس ومدفع واحد

وشراذم من البدو لاحتلال (المهوية)، فاستولوا عليها، فقرر عندئذ الزحف عليها لطرد البدو منها، ومضى في نيته إلى أبعد من ذلك حيث جزم بضرورة الانقضاض على المدينة في ٣٠٠٠٠ مقاتل، ورمى أعناق أهلها جميعا، وحصر إبراهيم باشا في الحناكية بذلك بين نارين، بينما يزحف فيصل أخو عبد الله بن سعود على مكة وجدة وينبع لقطع خطوط المواصلات دونه، وسلب من يصادفه في الطريق من القوافل، وهذا التصميم يدل على ما كان عند الوهابي من الجرأة والحذق، وقد تعاهد أعوانه على إنجاح المشروع، فاشتغل فريق بصناعة البارود، وفريق بتكرير نترات البوتاسا المستخرج من الجبال، وعقد الأمير النية على معاقبة المقصر في عمله بدفع غرامة فادحة المرة الأولى، وبالطرد والعزل في حالة العود، ومن يخالف الرؤساء بالجلد، ومن يولى الأدبار برمى العنق، وأثارت الثقة بالنجاح الحماس والشجاعة في النفوس.

البدوى أبو سيف، والفرنجى أبو مدفع

ومما لا شك فيه أن مدفعية إبراهيم باشا كانت أقوى من مدفعية الوهابيين، وأن عساكره كانوا أجود سلاحا، ولكن عبد الله كان يرجح الفوز مع ذلك لعساكره لتفوقهم في العدد، دع أنه كان لا يسلم بوجود شعب على الأرض غير العرب متفوقا في الحرب بالرماح والسيوف حتى كان كثيرا ما يقول: (البدوى أبو سيف والفرنجى أبو مدفع)، وكان إبراهيم باشا معتمدا فيما عدا ما ذكر من تفوقه الفني في القتال على ما كان منتظرا وقوعه من التنافس والشقاق في دولة حديثة العهد بالوجود كدولة الوهابيين، وعلى ما يتناول الأخلاق والمصالح المتناقضة من الجاذبية المتعاكسة، جاذبية المد والجذر فيها، وعلى غيظ سكان ثغور الحجاز ومدنه من انقطاع السبل على الحجاج والقوافل الذين هم مصدر ثروتها، وعلى بقاء الأهلين مرتبطين بعقائدهم السنية الأولى، غير أن هناك محلا للسؤال هل ما مضى من الوقت كان كافيا لاستكناهه حقيقة المواقع العسكرية في تلك الأرجاء، وتدريب جيوشه على القتال في أرض كأرضها وجو كجوها، واعتماد

أسلوب القتال وميدانه الملائمين له، وبافتراض أنه استولى على جميع المدائن والقرى الواقعة على سواحل البحر الأحمر، أفلا يجوز أن يلزم الوهابيون الراحة والسكون ريثما تتاح لهم فرصة للاستيلاء على المواقع المتروكة، ثم من يستطيع اقتحامهم فى أرض غير ممهدة لا يتيسر لغيرهم أن يعيش فيها بقرص ذرة أو شعير وقبضة اليد من التمر كما يعيشون هم، ولا يمكن لغير جيادهم أن يعيش بنوى هذا التمر وبعض الحشائش الطفيلية، أو الجمال غير جمالهم أن تقتصر فى غذائها على القتاد والعوسج، وفى ريها بما لا يتجاوز رطلا من الماء فى اليوم، وهذه الفروض والتخمينات كانت تتوارد على خاطر الزعيم الوهابى أثناء زحفه على المهوية، فيقلبها على وجوهها، ويزنها بميزان الروية والتبصر.

وفى فجر ٢ مايو أطلقت البنادق ورميت النبال فدل ذلك على دنو المهاجمين، ثم لمعت فى ضوء الشمس الرماح تحركها سواعد الوهابيين المتحمسين، وسمع من بعيد صليل السيوف ووقعها على الدرق. فما هى إلا فترة من الزمن حتى شوهدت أشباحهم النحيلة مختلطة بعضها

ببعض فى تدفقهم نحو المعسكر المصرى، مترنمين بأناشيد القتال، راقصين رقص الحرب، وكان النظر السطحى على تلك الكائنات التى يكاد يلتصق جلدها بعظمها ضؤولة ونحولا وقد حملت من مناطقها الخناجر كافيا للاعتقاد بأنها أشباح عجائز أفلتن من جهنم، فإذا أرسلت النظر نفسه من جهة أخرى إلى الأجسام العضلية النشيطة ذات الأساطين القوية والعيون التى تقدح شررا والشعور السوداء، والوجه الذى تلوح عليه لوائح الحماس، وقد حملت السيوف الطويلة وقبضت بيدها على مقابضها، وطرحت الأردية على الأكتاف أيقنت أنها كأجسام أبطال اليونان الأقدمين كلهم وثيق الأركان مدمج المفاصل، تلك كانت صفة عساكر إبراهيم باشا الذين شرع الوهابيون يهاجمونهم بدون أن يرسموا لأنفسهم خطة أو يتخذوا أهبة، وغاية ما فعلوه أنهم أخذوا يلتمسون الجهة التى ينبغى لهم أن يحتشدوا فيها بدون أن يهتدوا إليها حتى كونوا اعتباطا من أنفسهم خطا دائراً، ثم حاولوا الحملة على المصريين، فأمر أوزون على بإطلاق البنادق بشدة، ومازال بهم حتى ألزمهم الفرار، ثم انبرى زاحفا

على هجانتهم فأوقع رجالها فى الارتباك والخلل، وشعر عبد الله بحرج موقفه فتقدم بفريق من فرسانه نحو معسكر المصريين، وكان المدفع يعزز جانب مشاتهم المحاربين بالبنادق، فأمر الوهابى رجاله بأن يطرحوا أنفسهم أرضا، فاغتنم فرسان المصريين فرصة اضطرابهم وترددهم وهم يقومون بهذه الحركة للانقضاض على صفوفهم المختلة، وكان حلفاء عبد الله قد ولوا الأدبار فأبرز الأمير أمهر هجانته وفصيلة من العرب المجندين بنجد واليمن مقابل أجرة قدرها سبعة قروش وافية شهريا عدا المرتب الغذائى من الزبد والدقيق، إلا أنه عبثا حاول الظفر بمراده، بل زاد أنه أفنى تلك القوة التى طالما احتفظ بها للحوادث الطارئة الخطيرة، ولم يبق أمامه لصيانة حياته من الخطر سوى اقتفاء أثر الهاربين، ولقد اشتد الحرج به وبرجاله فما هى إلا لحظة حتى سمعت التكبيرة (الله أكبر)، التى تلاها الاستيلاء سريعا قبل الفرار على جثث ٣٠٠ قتيل لدفنهم تقية العار الذى يلوث زملاءهم الأحياء إذا لم يقوموا بهذا الواجب، وأسر المصريون ٢٠٠ أسير منهم بعض أقارب عبد الله، وجملة أتراك من المدفعيين

الذين فى خدمته، وغنموا عددا وافرا من الجمال والأرز والشعير وذخائر الحرب، أما خسارتهم فلم تزد على ١٢٠ قتيلا و١٦٨ جريحا، وكان القتال بينهم والوهابيين بنسبة واحد من أولئك وعشرة من هؤلاء.

مطير تتحالف مع الباشا

وبينما كان إبراهيم محافظا على خط الحناكية طبقا لأوامر والده ريثما توافيه الإمدادات أرسل فيصل شيخ قبيلة مطير- وهو الذى قتل زعيم الوهابيين أخاه- يخبر الباشا بأنه إذا وصل المصريون إلى المهوية انضم إليهم وحالفهم على إبادة الوهابيين وقتل زعيمهم انتقاما منه على قتله أخاه، فهش إبراهيم لهذا النبأ وسارع يوم ٣٠ أبريل إلى المكان المعين للاجتماع بفيصل ومعه ٤٠٠ فارس ومشاة راكبون على الهجن وثلاثة آلاف جمل تحمل الذخائر الكافية لمدة شهر، وفى ٢ مايو جاءه قبيل المساء قاصد ثم ثلاثة من الجند فأخبروه جميعا بانهزام الوهابيين فى الواقعة السالفة، فأنعم على القاصد الأول الذى حمل البشرى مائة ريال مكافأة وكسوة كاملة، ورأى

إبراهيم بعد ذلك أن يحث السير. وليأمن غـدر الأعـداء ومفاجأتهم اتخذ للجيش طلائع تحرسه من جنبيـه، فلمـا وصل إلى النقطة المقصودة تهلل الجند فرحـا وأطلقـوا البنادق إيذانا بسرورهم، ونزل فى خيمـة أوزون علـى، وهنأه هو وغانماً شيخ عربان حرب ببسالتهم، وقد جـرح جواد هذا الشيخ أثناء المعركة، وأصـيب أخـوه بطعنـة رمح، وبعد استراحة بضع ساعات تفقد إبراهيم المعـسكر فأمر بجعل الأسرى السودانيين خدما فى الجيش.

ولما رأى الوهابى أن الدائرة قد دارت عليه عدل طبعا عن الزحف على الحجاز وجمع فلوله فى ضاحية عنيزة، ثم أرسل إلى الرس مائتى رجل مـددا وذخـائر كثيـرة، وقصر هجمته على إعداد وسائل الدفاع عـن عاصـمته وعن الولايات الوسطى من مملكته.

أما إبراهيم باشا فقد فكر بحق فى الاسـتفادة بالمزايـا التى نجمت عن انتصاره، فاستقدم حامية الحناكية كلها ما عدا أربعين رجلا منها، وكتب إلى المدينة فى طلب المؤن والذخائر الحربية، وإلى مكة يستقدم الفرسان الذين وصلوا حديثا إليها من مصر لإمداده، وترأس أثناء ذلـك علـى

الحملة التى جردت لمطاردة القبائـل المعاديـة، فاجتـاز أوعار الجبال ثم عاد بشئ كثير من الجمـال والماشـية فوزعه على قواد جيشه، وكان التعب قد أنهك الفرسـان وخيولهم، فتقرر إمضاء شهر فى التماس الراحة للتقـوى من الضعف والضنى، وقد وصلت فـى خلالـه حاميـة الحناكية والـ ١٢٠٠ فارس التى برحت مكة.

وفى أوائل يولية غادر إبراهيم باشـا المهويـة فـى ٤٠٠٠ راجل و١٢٠٠ فارس غيـر العربـان، وكانـت صحته قد اعتلت كثيرا لما تكبده من التعب، ولم يكن قـد عنى بنفسه فلزم الفراش ستة أيام وصالا، ولكن ذلك لـم يقعد به عن العمل لأنه أمر أوزون على بالتقدم فى جيش مؤلف من ٢٠٠٠ عسكرى ومسلح بثلاثة مدافع، وما كاد يتماثل للشفاء حتى نهض للسير فى أثره.

وكانت الشقة طويلة، جمة الأوعار والوهاد والنجـود، فكان لا يتقدم قليلا إلا بعد التدابير لاتقاء المفاجأة، وكـان الماء نادرا جدا يزيد الشارب منه، بعد بذل العناء وتحمل المتاعب فى استكشافه، عطشا وألمـا حتـى أن الجمـال والهجن حرمت من شرب الماء، فحدث مرارا أن قـضت

٧٢ ساعة بدون أن تبتل شفاهها به، وبر فيصل شيخ مطير بوعده فالتقى بإبراهيم ووافاه بمؤن وافرة ودواب للنقل كثيرة، وانضم إليه بحيث صار هو ورجاله جزءا من الحملة المصرية، وما قبل الهدايا التى وجهها الباشا إليه إلا بعد أن قبل مثلها مشايخ العربان بين المدينة والقسيم، وقد حشد ١٠٠٠ راجل و٢٠٠٠ فارس بعد تكبد الشدائد فى إقناع قبائله بفوائد البقاء على ولاء المصريين، وكان نفوذه يمتد إلى ما يلى تلك البلاد بالنظر لقرابته من الزعيم الوهابى وحسن سمعته فى نجد الوسطى، فاستمال الكثيرين من الشيوخ إلى مؤازرته والاقتداء به.

خسائر المصريين أمام الرس

وكان منظر بلدة شنانة وقد اكتنفتها الأشجار يشعر بأنها غزيرة الخيرات متوافرة النعم، فلما دنا الجيش المصرى منها وجدها قفرا بلقعا، لأن الذكور القادرين من أهلها على حمل السلاح أخذوا لتعزيز الرس البعيدة بمسيرة اثنى عشر يوما من المدينة، أما الشيوخ والنساء والأطفال فقد فروا إلى (الشقراء) ومعهم ما ملكت أيمانهم

من الماشية والمتاع، وكان التعب والإعياء قد نالا كثيرا من العساكر، فأقاموا أسبوعا فى هذه الواحة، ثم تحركوا نحو تلك البلدة وتقدمهم الباشا فى ٥٠٠ فارس للاستطلاع، فقتل رجلين وجرح خمسة، وفى اليوم التالى بدأ الحصار ووضع مدافعه فى الأماكن المناسبة، وعكف على ضرب المدينة بها ستة أيام، ولكن شاء القدر أن القنابل لم تلحق بمبانيها ضررا ما حتى السور المحيط بها لأن القائمين على المدافع لم يكونوا من البارعين فى عملهم، فكانت قنابلهم تنفجر قبل أن تتم سيرها فى خطها المنحنى، فلما وقف الباشا على الحقيقة أمر رجاله فى الساعة الثانية من الليل بالحملة وتسلق الأسوار، وأطلق مدفعا إيذانا بذلك للمشاة، فركضت الفصائل لاستطلاع المكان، ومنع المحصورين من مبارحته، وخدع (أوزون على) هو والدلاة والمغاربة من جنوده العدو بأن لفت نظره نحو جهة غير التى كان ينبغى أن تنصرف إليها، إذ قام بهجوم كاذب عليها إلا أن الأهالى استرشدوا بدوى المدافع المصرية فوقفوا على الأسوار وظلوا أربع ساعات يصدون المهاجمين برماحهم وبنادقهم والمدفعين اللذين

كانا عندهم، وكان النساء والشيوخ يحرضون المدافعين من وراء الأسوار على الثبات والاستماتة ويعاونون الجرحى، ويضيئون ميدان القتال بسعف النخل الجاف المطلى بالصمغ، ولقد أبدى الفريقان من ضروب البسالة ما قضى بالعجب، وانتهى بالمصريين الأمر إلى الرضى بإيقاف القتال لما أصابهم فيه من الخسارة الفادحة التى بلغت ٨٠٠ رجل بين قتيل وجريح، ولم تكن خسائر العدو تنقص عن هذا القدر، فعزز إبراهيم جيشه بـ ٩٠٠ جندى تحت قيادة البكباشى يارو على، وقرر استئناف الهجوم عند طلوع الفجر وكان قد أمر بقطع النخل الكبير ليقيم به حصوناً متفرقة بارتفاع بضعة أمتار، إذ قد بدا له أن فشل الهجمة السابقة يرجع إلى قلة المرتفعات التى تمكن من ضبط مرمى المدافع، غير أن المهندس لم يفهم مراده تماما، فبدلا من أن يحتفظ بتلك الأشجار كاملة قطعها قطعا صغيرة ورتبها أكواما بدلا من أن يضعها بطولها لتسند ما سيوضع من التراب خلفها.

دع أن جعل تلك القطع على الترتيب السابق كان لا يكفل متانتها، ولهذا السبب لم يبتدئ إطلاق المدافع حتى

نشأ عن تراجعها إلى الخلف، وهو ما لابد من حصوله كلما ضربت، سقوط تلك الأخشاب من مكانها، وشجع هذا الحادث المحصورين فتمكنوا من صد المراكز الأمامية، وانقضوا على المدافع، ولكنهم بدلا من أن يسدوا ثقوبها بالمسامير ليجعلوها غير صالحة للاستعمال أخذوا يدوسونها بالأقدام، وكان ياور على أثناء القتال فى طليعة رجاله فأصيب بجرح بالغ، وحينما رأى المصريون ما حل بهم، بثوا ثلاثة ألغام فلم تف بالمراد لتيقظ الحامية الوهابية، وذهبت حيل المصريين للاستيلاء على الموقع هباء ولم يبق لهم من وسيلة يعتمدون عليها سوى الهجوم عنوة، فقاموا به ولكنه كالهجومين السابقين، لم يثمر غير الخيبة والفشل.

وكان موقف إبراهيم حرجا لأن ثلاثة آلاف من رجاله هلكوا أمام الرس ونفدت ذخائره، وتهددت المجاعة بقية جيشه، ولم يبق له أمل فى عون ولا مدد، وقد أصبح فى الصحراء على بعد سحيق من مصادر النجدة، وكان معسكر عبد الله بن سعود بين عنيزة و(روردة) ، فأخذ أخوه فيصل يكثر من الاستطلاع حول الرس فلم يجد ما

يحول دون إمدادها وتعزيزها، ولو أن قائدا أقل من إبراهيم- رصانة وتريثا فى عمله، وأكثر تروعا منه وجزعا أمام الحوادث إذا قلبت له ظهر المجن- لترك ميدان القتال يائسا وانقلب إلى الحجاز فورا، ولكن الكارثة التى نزلت به وبجيشه زادته إصرارا على إرادته، وتمسكا بتنفيذ مشيئته، ومضيا فى عزيمته، على أن الكارثة لم تقف عند هذا الحد، فقد ثارت عليه أيضا عناصر الطبيعة، واتحدت ضده مع العدو لأن الزوابع والعواصف ثارت ثارتها على وجه لم يكن مألوفا من قبل، فهبت الرياح الشديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المضارب والخيام، وتسلب الإنسان والحيوان التنفس والحركة، وسقط الجرحى على الأرض بلا حراك والأصحاء بلا قوة، وحل اليأس من نفوس الجنود محل الأمل، وبدأت الأمراض تعتور الأجسام وتصيبها بأشد الآلام، أما الوهابيون فقد أخذت فصائلهم تتفرق فى البلاد فتسلب الجمال وتأسر قاداتها وحراسها، ومع اشتداد تلك العواصف التى يشبه فعلها فى طبيعة الكون فعل التشنج العصبى فى الإنسان، فإن إبراهيم كان لا يزال ثابتا

كالصخر الصلد لأنه بينما كانت الأخطار محدقة به كان لا يفكر فى غير الفتح والانتصار، ولقد امتطى جواده فى

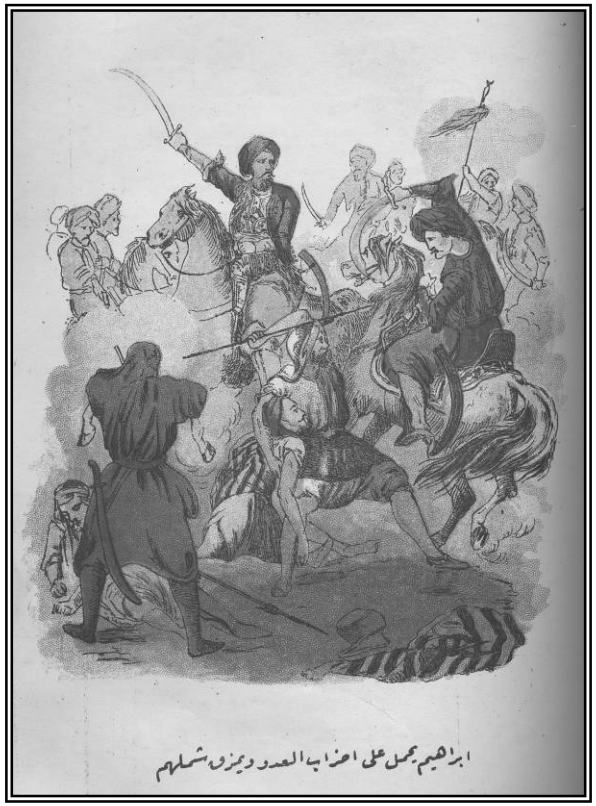

يوم من هذه الأيام العصيبة وسار فى ١٠٠٠ فارس فانقض على شيع العدو فمزق شملها كل ممزق، بعد أن قتل وجرح ٣٠٠ منهم، وقد قطع رؤوس الجرحى وعرضها مرفوعة على النبابيت أمام الرس، وإنما أراد بهذا المنظر التأثير فى نفوس المحصورين بإلقاء الروع فيها، ولكنه بث بهذا الفعل نشاطا جديدا فيها لطلب الانتقام، فاندفعوا خارج الأسوار واشتبكوا فى معركة سالت الدماء فيها غدرانا.

ابن سعود يطلب الصلح

وكانت ظروف الأحوال إلى هنا ملائمة للزعيم الوهابى ومساعدة على تمهيد كل طريق يطرقه لإنقاذ بلاده من خطر كان منها قاب قوسين أو أدنى، ولكنه بدلا من شروعه فى هذا العمل- الذى كان يكفى لإنجاحه الجمع بين الهمة وقوة الإرادة واللباقة- انزوى فى عاصمته مضحيا المصلحة العامة فى سبيل نجاته ونجاتها من السقوط، تاركاً قواده يقتحمون غمار القتال وحدهم ضد المصريين، ومكتفيا من شؤون هذه الحرب بإيفاد

اثنين من مقربيه لمفاوضة إبراهيم باشا فى الصلح، وهما الشيخ محمد الحنبلى، والشيخ عبد العزيز بن محمد، وقد طلباه مشترطين فى مقابله رفع الحصار حالا، فكان جواب إبراهيم أن أنذر محمدا بن مرزان حاكم الرس بوجوب تسليم المدينة إليه فرد عليه هذا بقوله: (تعال فخذها) فاستؤنف القتال بين الفريقين، وتابع عبد الله مخابرات الصلح التى بدأ بها، وكان يهمه التسويف والإطالة فيها لإعطاء إخوانه الوقت اللازم للاحتشاد، فطلب منه الباشا دفع نفقات الحرب ومتأخر الرواتب للجند، وتقديم ألفى جواد وثلاثة آلاف هجينة، ومؤن الجيش لستة أشهر، وتسليم اثنين من أولاده رهنا عنده، وهى شروط فادحة ولكن فداحتها ترجع إلى ما أظهره عبد الله من الذلة والاستكانة، حتى ترك لخصمه زمام الحق فى فرض الشروط على ما يهواه، والتكلم بلهجة الغالب لا المغلوب، فلاحظ صالح بن الرشيد المندوب الوهابى أن خصم الأمير المصرى لم يكن فلاحا ولا من رعايا محمد على، وإنما هو أمير نجد وصاحبها وحاكمها، وظهرت طلائع المشادة من الطرفين، فلم يبت

أمر ما فى الصلح المنشود.

اتفاقية الرس

وكان سكان الرس قد سئموا انتظار وصول المدد إليهم، ولم تعد لهم طاقة برؤية الخراب تمتد يده إلى البيوت، والموت يتحيف السكان منذ ثلاثة عشر شهرا وسبعة عشر يوما، فعولوا وقد تولاهم اليأس هم وحاكمهم على أن يطلبوا من إبراهيم هدنة شريفة، فتم الاتفاق بين الطرفين على أن يرفع الحصار، وأن يذهب الحاكم بجيشه إلى حيث شاء إلا إلى داخل الرس، وأن لا يفرض على الأهالى مغارم من المؤن والمال ومطالب الحرب، واشترطوا على أنفسهم الموافقة على وضع حامية مصرية فى مدينتهم إذا وقعت عنيزة فى يد المصريين.

بلغ عدد المصريين الذين قتلوا أو دفنوا حول أسوار الرس ٣٤٠٠ على الأقل، ولكن إبراهيم كان جسورا لا تصده العقبات عن الوصول إلى غرضه، فإنه زحف بمن بقى من جنده، فكان الانتصار معقودا بحركاته.

فتح الخبراء

وصل إلى مدينة (الخبراء) فلم تلبث أن فتحت أبوابها لجنوده بعد مقاومة ضعيفة، فاستراح الجنود بها أحد عشر يوما، قدم السكان إليهم فى خلالها ما لزمهم من الشعير والقمح وغيرهما من الحاجيات التى بادر الباشا بدفع أثمانها عن سعة حتى تبقى شهرته التى اشتهر بها بالأمانة بين قبائل العرب مصونة يضرب بها المثل، ووافق زعيم الوهابيين على اتفاقية الرس.

فتح عنيزة وهروب الزعيم الوهابى

ثم انثنى نحو (بوريدة)، وكان قد نصب خيامه فى عنيزة ومضت على إقامته بها ثمانى ساعات حينما تمكن المصريون من إقامة معسكرهم بها، لأن مددا مؤلفا من ٣٠٠ فارس بقيادة رشوان آغا كان قد وصل إليها، فجهز إبراهيم مدافعه للقتال، وكان ذلك الموقع فى قيادة محمد ابن حسن وبه قلعة منظمة مشيدة على مسافة فرسخ من السور، فسلمت القلعة بعد ضرب عنيف من المدافع مدة ستة أيام وختمت الخسائر التى أحدثها الضرب بانفجار

مستودع البارود، وقد خاف الجند على حياتهم فلاذوا بالفرار من غير أن ينتظروا عقد التسليم الذى وقع الرؤساء عليه، وقد أثبت لهم إبراهيم أنه كان من الواجب عليهم الالتجاء إلى رحمته وشفقته، ثم أذن لهم بالذهاب إلى حيث يريدون بشرط أن لا يحملوا معهم سلاحا ولا مدافع ولا مؤن ولا أمتعة، وألزمت المدينة بأحد أمرين: إما تموين الجيش المصرى بما يلزمه من المؤمن والعلف، وإما بدفع المال اللازم لشراء ذلك له، ونشأ عن الاستيلاء على عنيزة- التى كان مما يزيدها أهمية فى نظر الطرفين المتحاربين كونها فى منتصف الطريق بين البحرين- أن اضطر الزعيم الوهابى إلى الانسحاب نحو الشقراء والاشتغال بتحصين الدرعية.

وبناء على الاتفاق المبرم مع أهالى الرس وضعت بها حامية مصرية، إذ من مقتضى هذا الاتفاق- كما ذكر سابقا- إدخال هذه الحامية فيها بعد سقوط عنيزة.

تسليم القسيم

ولما شهد أهل القسيم- وهى مقاطعة غنية بالحاصلات

آهلة بالسكان- ما حل أقروا بالطاعة لإبراهيم الذى باستيلائه على هذه البلاد أصبح الطريق الموصل إلى عاصمة الوهابيين مفتوحا أمامهم، ولكن لم يكن فى هذا الطريق ما يعترض سيره أو يجعله متعذرا سوى مقاطعة (الوشم) وسلسلة صحارى آخذ بعضها ببعض، وجملة من المدن.

وفى هذا المكان كان إبراهيم قد ترك الحدود التى هى أقصى ما بلغ أخوه طوسن فى حملته، فرأى أن من الحكمة قبل الإيغال فى نجد الاحتفاظ بموقع حصين للاعتصام به عند الحاجة، فأمر بترميم قلعة عنيزة وقطع ستة آلاف نخلة لنصب بطاريات المدافع خلفها، وعمل سياج لمعسكر حصين، ثم أرسل الرسل إلى مصر لنشر بشرى الفوز بين أهلها، وكان مما عقد النية عليه الانتظار ريثما تصل إليه الإمدادات والمؤن ليستأنف الإجراءات الحربية.

سقوط بوريدة

ولكنه كان رجل جد وعمل، فزحف من فوره على

بوريدة، وظل يطلق القنابل عليها حتى هدم أسوارها واستولى على إحدى قلاعها ورمى أعناق حاميتها المؤلفة من ٢٠٠ مقاتل.

وكان عجيلان حاكمها هو الذى حاصر (سعدون بن آريار) خمسة أشهر فقاومه مقاومة عنيفة، وصد فى سنة ١٧٨٠ رجال (الحسا) بسيفه وبندقيته، ثم أحرق معاقلهم، وأخذ خيامهم وألقى الروع فى أفئدة أعدائه فهزمهم وبدد شملهم حتى عجزوا عن أخذ جثث قتلاهم كى يحتفلوا بدفنها. فذلك البطل الباسل اضطرته ظروف القتال ضد إبراهيم إلى إرسال ابنه إليه ليكون رهنا عنده مقابل حصوله على الإذن بالإقامة فى المدينة حيث وافته المنية عقب وصوله إليها بقليل. وعقب سقوط بوريدة دمرت أبراجها وحصونها، وتفرغ الباشا لتدبير الأغذية والمؤن من جهة وتعزيز قواه العسكرية من جهة أخرى، لما كان اعتورها من الضعف بسبب ترك فصائل منها فى الرس وعنيزة، وما سيعتورها منه عندما يبرح بوريدة ويترك بها فصيلة أخرى لوقايتها من الغارات، ولقد كتب إلى والده فى هذا الشأن طالبا منه المدد، فأجابه إلى طلبه

فورا، إذ تحرك هذا المدد مع قافلة محملة بالمؤن والذخائر بقيادة كيخيا إبراهيم باشا.

الكيخيا يهرب بالإمدادات إلى الشام

ولكن لم يبتعد هذا القائد عن القاهرة بمسيرة يومين حتى ترك حملته فجأة قاصدا إلى الشام أخذا معه الـ ٢٤٠٠٠ كيس من النقود التى عهد إليه بتوصيلها إلى إبراهيم باشا، وكان هذا المبلغ كل ما جمع من فرضة ضربت على أراضى القطر المصرى بعضها بنسبة سبعة قروش عن الفدان الواحد من الأرض الجيدة، والبعض بنسبة ستة قروش عن الأراضى المتوسطة برسم الإنفاق على الحملة.

حوادث بوريدة

وحدثت فى بوريدة حوادث ليست أقل من تلك أهمية ولا تأثيرا فى الحالة النفسية للجنود المصرية.

من ذلك أن البكباشية كانوا قد اعتادوا كلما قبضوا مرتبات جنودهم تقديم إحصاء عنهم يتجاوز العدد الصحيح، فراب إبراهيم من ذلك شئ فى مبدأ الأمر، ثم

أراد الاستيثاق فأخذ، كلما عرض الجنود، يحصى عددهم فى نفسه ويقدرهم تقديرا دقيقا، وشعر البكباشية بشئ من ذلك فسقطوا فى أيديهم. وكان العرض للمناورات والتدريبات الحربية لا يلائم طباعهم ولا يوافق أمزجة العساكر لما جبلوا عليه من الدعة والكسل، فاتفق ذات يوم أن ملَّ إبراهيم باشا مقابلة مشايخ القبائل والقرى طول النهار، فاستدعى بعض العارفين بحوادث التاريخ لمسامرتهم وتسرية الملل عن نفسه بسماع طرفهم، فبينا هو كذلك إذا بخيمته قد اشتعلت النار فيها والتهمتها قبل أن يستطيع أحد استنقاذ شئ مما كانت تحتويه من الأعلاق والتحف النفيسة، وكانت دلائل سوء النية فى هذا الحادث محسوسة ملموسة، إذا تبين أن مرتكبيه كانوا يدبرون فى الخفاء منذ زمن وسيلة للخلاص من القائد.

فلما نفذوا مكيدتهم هذه ورأوا أنهم فشلوا فيها، عمدوا إلى مكيدة أخرى، خبرها أنه بينما كانت الفرسان قائمة بالتدريبات النارية فى الظهيرة إذا رصاصة اخترقت عمة إبراهيم، واتضح أن مطلقها مغربى فر بعد إطلاقها، على أن الإمدادات المنتظرة وصلت بعد ذلك بقليل مؤلفة من

٨٠٠ رجل ومدفعين للحصار وجمال كثيرة ومؤن وذخائر، فأصبح الجيش المصرى بها مؤلفا من ٤٠٠٠ ألبانى ومصرى و٥٠٠ مغربى تحت قيادة حسن كاشف، ثم من عربان قبائل مطير وحرب وبنى خالد وعتيبة الذين كان مشائخهم يقيمون فى المعسكر المصرى العام، ويقومون بالاستطلاع للجيش المصرى وحراسة القوافل الحاملة للميرة والعلوفة والذخيرة، وكان مع هذاالجيش فيما عدا المدافع المتقدمة اثنى عشر مدفعا، وبضعة آلاف من الخدم، و١٠٠٠٠ دابة للنقل، وكانت أفواه هذه الكائنات المختلفة تستنفد طبعا المؤن المدخرة شيئا فشيئا.

الزحف نحو الشقراء

وقد وصلت إلى إبراهيم باشا أنباء تعلن اهتمام الوهابيين بتشييد الحصون والاستحكامات للدفاع حول بلدة الشقراء، فأمر فرسانه بالتقدم نحوها، ثم قصد إليها بنفسه بعدهم يوم ١٨ صفر ١٢٣٣ الموافق ٢٨ ديسمبر ١٨١٧ بعد أن مكث فى بوريدة شهرين كاملين، فبلغ إلى أسوار (المذنب) واستولى عليها، وأصبح من عاصمة الوهابيين

بذلك على مسافة ٢٠٠ كيلو كلها جبال صخرية وفيـــاف قاحلة، ولقد رتب جيشه برسم الزحف عليها كما يأتى:

الفرسان فى الطليعة، والمشاة والمدفعية ودواب النقـــل فى الوسط، والمغاربة فى المؤخرة على مـــسافة ســـحيقة منه، وكانت الجيوش كلها تسير سيرا وئيدا ست ســـاعات فقط فى كل ٢٤ ساعة، لتتلافى مـــشاق الرحلـــة وتعـــب النقلة، وكانت ترى من آن إلى آن فى تلك البيداء الواسعة نخلة واحدة أو كوخا منعزلا، فـــيظن الـــراؤون أن وراء الأكمة ما وراءها، فيتنازعون مقدما علـــى الاختـــصاص بثمار الشجرة أو أوراقها أو الماء الذى يرجى أن يكـــون بجوارها، ولكنهم كان يخيب رجاؤهم متـــى وصـــلوا إذ يجدون الكوخ شاغرا من السكان، والنخـــل بـــلا ثمـــر، والآبار بلا ماء، وكانت لا تقع الأنظار بعد ذلك إلا علـــى صورة مجسمة من صور الخراب المحـــزن، بـــل علـــى نتيجة من نتائج استبداد الأمير الوهابى وصـــلابته، فإنـــه جمع عربان القبائل الموالية له حول (درامة) والدرعيـــة للذود عنهما، فخرب منازلهم وأتلف مـــزارعهم، وكانـــت الشمس أثناء زحف الجيش فى تلك الأصقاع ترسل إلـــى

الجباه أشعتها المحرقة، وأقدام الزاحفين تهوى فى أخاديـــد الأرض، أو تنغرز فى الرمال المتحركة، وكان كلما عنت حاجة إلى الصعود من أكمة أو جبـــل أو هـــضبة ركـــب العساكر الجمال، كل اثنين جملا، ولكن كان إبراهيم فـــى مقدمة الجميع يسير على قدميه ليكون لهم مثلا أعلى فـــى الصبر والجلد والإقدام.

ولما لاحت له الشقراء نصب مخيمه على مـــسافة ١٦ كيلو مترا منها بين قريتين أذعن أهلوهما له بالطاعة، ثـــم وردت عليه الأنباء بأن حسن باشا والى مكة أدب عـــرب اليمن تأديبا زاجرا، إذ كانت شيعتهم تغير على الأقطـــار الحجازية من آن إلى آن فتلحق بها الأذى، وقتل ٣٠٠ من رجال الشريف حمود أبو مسمار.

وفى ٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٣ الموافق ١٣ يناير سنة ١٨١٨ خرج إبراهيم فى ٨٠٠ فارس للاستطلاع حـــول الشقراء، واختيار الموقع المناسب لإقامة معسكره، فحدثت بينه وبين حاميتها مناوشات جرح بسببها بعض عساكره، فلما كان المساء عاد إلى معسكره وأنذر القواد بوجـــوب الاستعداد للزحف، فأخذوا لذلك عدتهم بحيث إنه لم تشرق

شمس اليوم التالى حتى كان جيشه –المؤلف من ٤٥٠٠ فارس وراجل و٦٠٠٠ جمل محمل بالمؤن والذخائر– قد استأنف المسير. ومما هو جدير بالذكر أن المدفعية لقيت فى السير على الرمال عناء شديدا، ولكنهم وصلوا على أحسن حال إلى الموقع الذى اختاره إبراهيم للقتال.

معركة الشقراء

فنصبوا مدافعهم على مرتفع من الأرض، ثم بدأوا بإطلاق القنابل منه، وساعدهم المشاة بإطلاق البنادق من جنوب المدينة وشرقها، واستمر القتال إلى ليل ٨ ربيع الأول الموافق ١٦ يناير سنة ١٨١٨ حيث أحدثت القنابل ثلمة فى أسوار الحدائق المحيطة بالشقراء، فحمل المصريون على المنازل الواقعة خارج السور، فصدهم الوهابيون بعنف وبسالة، ولكن التلف الحادث من رمى القنابل كان قد ألقى الروعة (شدة الخوف) فى نفوسهم فانسحبوا إلى داخل المدينة، وبلغت خسائر الجيش المصرى فى هذه المعركة ١٠٠ جريح و٤٢ قتيلا وأسيرين، ولكن لم يلبث أن وردت عليه أعلام كثيرة مما

خسره العدو وآذان ١٦٨ قتيلا، وبادر الباشا بعد ذلك فضرب نطاقا من الجنود حول المواقع الخارجية، وعهد بأعمال الحصر إلى مسيحى وهو الضابط الفرنسى (فسيير) بالرغم من تذمر العساكر واحتجاجات القواد واعتراضاتهم، فشيدت جملة معاقل وأطلقت القنابل منها، فى الوقت الذى كان فرسان المغاربة فيه قد عادوا من غزوة ضد القبائل المعادية بالغنائم الوافرة من الماشية والجمال والأمتعة.

الوهابيون يطلبون الصلح

وفى مساء ١٩ يناير اختار السكان والحامية الوهابية رجلا من بينهم للمفاوضة مع القائد المصرى، فذهب هذا الرجل إلى المعسكر العام للمصريين وأوقفت المحاربة بسبب ذلك ساعتين، فلما لم يتفق الطرفان على شئ يحسن الوقوف عليه، استؤنف القتال واستمر إلى ١٣ ربيع الأول الموافق ٢١ يناير، وفى هذا اليوم ندب قائد وهابى إلى إبراهيم باشا ومفاوضته فى أمر الصلح، فوقع الاختيار على أحمد بن يحيى صهر عبد الله بن سعود وكان حاكم

الموقع، فسلم إبراهيم إليه منديلاً أبيض إشارة للأمن، وعلى أثر ذلك فتحت الأبواب فى وقت الظهر.. وفى ١٤ ربيع الأول الموافق ٢٢ يناير ألقى رجال الحامية وعددهم ١٤٠٠ السلاح من أيديهم عملا بشروط الاتفاق الذى أفضت المفاوضة إليه، وانصرفوا إلى بلادهم، بعد أن تعهدوا بأن لا يحملوا السلاح منذ الآن فصاعدا فى وجه الجيوش المصرية، وتسلم إبراهيم ما احتوته البلدة من معدات، وهى خمسة مدافع كان يديرها رجل خائن من جيش طوسن باشا، وأمتعة المعسكر وجميع الذخائر والأسلحة، فلم يكن من إبراهيم إلا أن فرق الرماح والبنادق والبارود على القبائل الموالية له فى نجد، وأرسل إلى والده بالقاهرة مقدارا كبيرا من الآذان، وأخبره بالزحف قريبا على الدرعية.

أخلاق إبراهيم باشا... وأخلاق ابن سعود

وقد كفى ما وجد فى البلدة من القمح والشعير والأرز لتموين الجيش شهرا كاملا، وكان حصول الباشا عليها بطريق الشراء لا طريق الغصب، وهو مسلك يناقض

مسلك عبد الله بن سعود الذى أنشأ الحصون وحفر الخنادق دون أن يدفع أجر العمال أو يزودهم بطعام، وبلغت خسارة المحصورين من القتلى فى الأيام الستة التى قاوموا فيها ١٧٠، ومن الجرحى ٢٤٠ منهم ٣٥ امرأة و١٢ طفلا.

أما خسارة المصريين من القتلى والجرحى فلم تتجاوز ١٣٠ قتيلا وجريحا،، وهذا بلا شك ثمن بخس لمثل ذلك الموقع الحصين الذى هو مفتاح العاصمة الوهابية.

ومن مزايا الشقراء عدا ما تقدم أنها قاعدة إقليم الوشم، وأنها قائمة فى وسط سهل من الأرض لا يبعد عن المدينة بأكثر من ١١٢ كيلو مترا، وأنها خط الاتصال بالجهات الغربية التى يمر منها الطريق بين الرس والدرعية، ثم أن جبال الطويق تحيط بها من جميع الجهات، ولها تجارة رائجة فى الماشية والأصواف والسجاجيد مع دمشق وبغداد والبصرة، وفيها مساجد عديدة وشوارع عريضة تحف بها من الجانبين أشجار باسقة، دع ما امتاز به رجالها من النشاط وكرم المثوى ونساؤها من الجمال والعفاف، وطقسها من الاعتدال، وأخلاق أهلها من الدعة

والسكون، ولتوافر هذه المزايا فيهم تجد أنهم يعمرون طويلا، فلقد رأى المصريون بها امرأة فى السابعة عشرة بعد المائة من عمرها لم تفقد شيئا من شعرها ولا من جودة صحتها وحسن نطقها وعذوبة لفظها، واستوقفهم مرة منظر فتاة فى الثانية عشرة من عمرها صهباء شعر الرأس كالفتاة الإنجليزية، وقد رجحوا أن تكون فارسية الأصل من فارس الشمالية، وأن أباها تركها فى هذا المكان أثناء الحج(١).

الارتحال عن الشقراء

فكر إبراهيم فى الارتحال عن الشقراء ولكنه عنى قبل أن يرتحل عنها بإنشاء مستشفى بإدارة الطبيب (جنتيلى) لعلاج الـ ٣٠٠ مريض وجريح الذين كان مضطرا إلى

(١) كان الوهابيون يهاجمون قوافل الحج، فإذا وجدوا بنتاً أو امرأة جميلة أخذوها سبية، لاعتقادهم أن غيرهم كفار ومشركون حتى وإن نطقوا بالشهادتين وأدوا أركان الإسلام لكنهم لم يقبلوا الدين الوهابى الجديد، وبالتالى فدماؤهم غير معصومة، ونساؤهم سبايا، وأموالهم غنيمة.

تركهم، وعقب ابتعاده عن الشقراء هطل مطر غزير فاض الماء بسببه فى الوادى، فاضطر إلى نصب مخيمه على سفح الجبل المجاور، وأتلف الماء جزءا من المؤن، ولكن الأرض لم تكد تجف وتصلح لمرور المدافع حتى أمر الجيش بالارتحال، فأقرت له بالطاعة قرى كثيرة فى الطريق، ومر بقرى كثيرة شاغرة من السكان لأن الزعيم الوهابى أمر بجمعهم وسوقهم مع ما يملكون من قطعان الماشية والأغنام إلى (الحسا)، التى وجه كل همه إلى حشد أكثر ما يستطيع من الجند فيها.

موقعة درامة

وكانت درامة- التى تحميها أسوار الحدائق وفسيح الحقول المغروسة بالأشجار ومختلف النباتات- فى مدخل المضيق الذى يؤدى إلى جبل الطويق على مسافة ٤٠ كيلو مترا منه، فالموقع المقابل للدرعية. فلما وصلت طلائع الجيش المصرى إليها تلقاها الأهلون بنار حامية، فثارت فى العساكر ثائرة الغضب والغيظ، فانقضوا على المدينة ينهبون ويسلبون ويفضحون البنات والنساء

ويرمون أعناق الرجال حتى ارتوت الأرض فى المنـــازل والطرقات بالدماء، ومن بقى منهم على قيد الحياة أجيز له البقاء بين هذه الأطلال الدارسة بالقرب من رمة والـــد أو جثة الأخ أو أشلاء زوج.

وكان والى هذه البلدة- وهو سعود بـــن عبـــد الله قـــد اعتصم هو ومن يثق بهم من رجاله- فى بناء فسيح، نقل معه إليه أسلحته وخيوله ووضع أمام البناء مدفعين، فلمـــا شهد إبراهيم ذلك أمر بإيقاف الهجوم قائلا: إن فيما وقـــع من التشفى والانتقام ما يكفى، وعفا عن الذين ما برحـــوا يدافعون عن درامة، بشرط أن لا يحملـــوا ســـلاحا، ولا يأخذوا أمتعة، ولا يشتركوا فى قتال أبدا ضد المصريين، وقد وجد هؤلاء فى درامة من لوازم الغذاء ما عوضوا به المستنفد من مؤونهم، لأن الأرض فى هذا المكان كثيـــرة الخصب، والخيرات بها وفيرة، ومنهـــا تتـــزود القوافـــل الذاهبة إلى فارس ومكة، فضلا عن كفايتها لسد حاجـــات سكانها الذين كان عددهم لا يقل عن ٧٥٠٠ نسمة وسكان الدرعية الذين كان عددهم غير الأطفال ١٣٠٠٠ نـــسمة، واتفق أن هطلت الأمطار وهبت العواصف فعاقت إبراهيم

عن الرحيل، فإنه لم يبرح تلك البلاد إلا يوم ١٤ جمـــادى أول الموافق ٢٢ مارس. وكان جيشه مؤلفا مـــن ٥٥٠٠ فارس وراجل و١٢ مدفعا منها اثنان من الهاون واثنـــان لقذف القنابل المستطيلة.

حادثة الملكة

فوصل بهذا الجيش الكثيف إلى (الملكة) القريبـــة مـــن الدرعية، واضطر فى قطع شطر من هذا الطريـــق إلـــى السلوك بين الجبال والمضائق الوعرة، فلما كـــان اليـــوم التالى خرج إبراهيم فـــى ٨٠٠ فـــارس ومـــدفع واحـــد للاستطلاع، فبلغ فى جولته إلى اســـتحكامات العاصـــمة الوهابية، وحدثت مناوشات بين الفريقين انجلت عن قتـــل بعض الناس منهما، ثم عاد الأمير إلى معسكره بعـــد أن جس مخاضة العدو، وعرف ما ينبغى اتخاذه من التدابير فى قتاله، وفى ٢٩ جمادى أول الموافق ٦ أبريـــل ١٨١٨ أقام أمام الموقع- بعيدا عن مرمى المدفع منه- حـــصونه الأمامية، فعين الوهابيون النقط التى ارتأوا أنها أوفق مـــا يكون لهم فى القتال، وخرج جيش منهم مؤلف من ٢٠٠٠

رجل بقيادة فيصل أخى عبد الله، فشاد على مرمى البندقية من الاستحكامات المصرية استحكامات موازية، فلما شهد المصريون ذلك شادوا جملة معاقل واتخذوا الوسائط اللازمة لإخراج العدو من القلاع والآكام التى احتلها.

الدرعية عاصمة الوهابية

أما الدرعية- وهى نقطة ارتكاز الوهابيين ومركز حشدهم وتعبئتهم، وعاصمة إقليم نجد وقاعدة العارض- فواقعة فى الجزء الشرقى من بلاد العرب على مسافة ٨٠٠ كيلو متر من ينبع، على خط مستقيم فى نهاية واد مشهور بالخصب، بين جبلين يحتويان عيونا للماء غزيرة، ويمر بها مسيل الباتن الذى يجف طول السنة إلا فصل الشتاء، ويروى على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا حقول القمح وكروم العنب وغابات النخل، وهناك مروج واسعة ترعاها قطعان الماشية والأغنام فتعطى اللبن والجبن واللحم، وتؤخذ بقية حاجيات المعيشة والحبوب اللازمة لغذاء الطيور والحيوانات الداجنة من الأراضى الأخرى القابلة للزرع، أما التجارة فرائجة زاهرة، ومن أخص

صناعاتها صناعة القلنسوات السوداء الطويلة الشائعة الاستعمال فى الشرق، أما موقع المدينة فحسن جدا، كان الناس يعتقدون أنه من المواقع المنيعة لأنه لا يوصل غرباً إليها سوى حلق ضيق من حلوق الجبل، وفيه الخطر كله على من يريد الهجوم، أما من الجهات الباقية فتحميها على مسافات بعيدة منها النفود، أى: الفيافى الرملية التى لا ماء فيها على الإطلاق.

ومما هو خليق بالتأمل أن الدرعية تتألف من خمس مدن صغيرة، لكل مدينة منها أبواب وأسوار خاصة تتخللها الحصون والأبراج. وفى عهد هذه المحاربة كانت بها قلعة تحمى حى الطرفية وحى الغسيبة المستندين إلى القلعة وأكمة عالية بجوارهما، وكان مقام زعيم الوهابيين فى حى الطريف الذى تفصله عن السهل قناة لماء السيل، أما حى القصرين فيمتد بين الحدائق الغناء وقد هجره سكانه منذ بداية الحصار إلى الأحياء الأخرى للاحتماء بمنازلها، ومحيط هذه الأحياء إثنى عشر كيلو مترا، وهى دائرة كان من المتعذر حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل، أى: بأربعة أضعاف جيش إبراهيم باشا، لذا كان من أول

ما اتجهت إليه همته حشد قواه كلها فـــى نقطـــة واحـــدة للهجوم بها على حصن هناك سناده أكمة مرتفعة.

بداية الهجوم على الدرعية

فلما كانت ليلة ١٢ أبريل ١٨١٨ نصب إبراهيم تحت جنح الظلام مدافع بطريتين فى الأماكن الملائمة للقتـــال، وما أسفر صبح ١٤ أبريل حتى بدأت هذه المدافع تقـــذف حممها، وأمر البكباشية بتعزيزها فقام الدلاة والإيشاغاسية بحراسة مضيق المسيل.

وأخذ فرسان رشوان آغا يعزز العربان المـــصريون مواقفهم على خط الصحراء، وأحدثت القنابل ثلمـــة فـــى القلعة السالفة الذكر، فانقض برج من أبراجها، وفر حماته تاركين جرحاهم ومدفعين وكثيرا مـــن المـــؤن وذخـــائر الحرب وأمتعة العساكر، فطوردوا مطاردة عنيفـــة حتـــى بلغوا حدائق المدينة، وأسر منهم كثيرون، ولبث إبـــراهيم بعد ذلك ينتظر ورود الإمدادات إليه ليحسن ختام براعـــة هذا الاستهلال المجيد.

أما الزعيم الوهابى فلم يدع وسيلة إلا اتخـــذها لبـــث

الحماس فى نفوس رجاله، فكان يـــوزع علـــيهم الـــذهب والثياب ويعين للمشائخ المواقع المهمة، وأخـــذ صـــنائعه يكررون على المسامع أنه لا ينبغى الإصـــغاء منـــذ الآن لصوت غير صوت الانتقام من عدو بنى خطته فى قتالهم على نهب المدن وهدم المساجد وذبـــح الرجـــال وســـبى النساء (١). وعول الباشا بعد أن قضى الأيام السابقة فـــى مناوشة النقط الأمامية على الاشتغال فى ساعات فراغـــه بالأعمال الجدية، فمن ذلك أنه شـــهد مـــدفعين للأعـــداء وضعا على قمة أكمة، وكان يخـــشى ضـــررهما، فـــأمر رجاله بأخذهما عنوة، فحمل كل من أوزون على ورشوان آغا حملة جانبية على الوهابيين، فقـــاوموا بعنـــف نحـــو نصف الساعة، ثم تقهقروا إلى المدينة للاحتماء بها، وقـــد

---

(١) هذه هى عادة الوهابية فى ترويج الأكاذيب والإشـــاعات مـــع خصومهم المسلمين، فهذه الحملة لم نر فيها نهبـــاً لمـــدن، ولا هدماً لمساجد، ولا سبياً لنساء، ولا ذبحاً لرجال مدنيين، بل كل هذه التهم لم يفعلها إلا الوهابيون، وصدق القائل: (رمتنى بدائها وانسلت).

قتل فى هذه المعركة سليم آغا خازندار إبراهيم.

وتأمل فيصل بن سعود طويلا فى عاقبة هذا الفوز الباهر، فرأى أن استحكاماته أصبحت معرضة للخطر وإمداده من الخارج متعذر إن لم يكن مستحيلا، فانسحب فى قوته وحشده إلى وسط الحدائق مستعصما ببعض الاستحكامات فيها.

الإمدادات من البصرة ومصر والمدينة وعنيزة

ومما ضاعف نشاط المصريين وقوى رجاءهم فى النجاح وصول ١٥٠٠ جمل إليهم محملة بالأرز والشعير والدقيق بعث بها والى البصرة، واتصل بالباشا فى الآن نفسه أن والده أرسل إليه فرقة من المغاربة ومدافع وأدوات للقتال، وهذا فضلا على أن المرضى والجرحى الذين تركهم بمستشفى الشقراء كانوا قد أبلوا من أمراضهم فعادوا إلى صفوفهم، ووصلت بعد هذا وذاك قوافل من المدينة وعنيزة ومعها ٥٠٠ رأس من الضأن وشئ كثير من البقسماط والقمح والشعير والسمن والبارود والقنابل، فلما شهد الجنود ذلك بدت عليهم آيات السرور

والبشر.

ورام الوهابيون الخروج لمهاجمة معسكر رشوان آغا بالجناح الأيسر، فصدوا بعنف وخافوا أن يهجم المصريون عليهم لمقابلة المثل بالمثل، فأقاموا أسواراً وحفروا خنادق، ولقد تركهم المصريون فى عملهم لا يتعرضون لهم فأجادوا التحصين، وكان كل يوم يمضى يجعل دم المصريين عزيزا غالياً، ويبعث على الضن به لازدياد المرضى منهم، هذا فضلا عن أنه كان مما يشق على نفوس العساكر البقاء تحت السلاح ست ساعات فى كل أربع وعشرين ساعة لغرض سوى دفع مناوشات العدو ورد غاراته الجزئية الفجائية، وإذا اتفق أن شيوخ القرى الذين يقصدون الدرعية لتلقى الأوامر والتعليمات من زعيمهم كانوا يفضلون الوقوف بقطعانهم ومؤنهم فى معسكر إبراهيم لبيعها بالأثمان الملائمة لهم، فإن الإمدادات الواردة إلى الوهابيين من إقليم الحسا كانت تصل إلى الدرعية بلا معارض من الجانب الآخر من المدينة، وتساهل المصريون فى مرورهم لما كانوا هم عليه من قلة العدد فى تلك الجهة، ومال الباشا إلى إزالة

هذه الصعوبة بالحيلة التى وفق لتدبيرها منذ بدء الحصار، فإنه كلف (فيسيير) بإنشاء معاقل استطاع بواسطتها تدمير البرج المطل على الحدائق والمجاور لاستحكامات (غسيبة)، فالبرغم من تيقظ الوهابيين لصد هذه الغارة تمكن المصريون بما أحدثوه من الثلم فى الحصون من زحزحتهم عن مواقعهم، وكانت الظروف ملائمة للهجوم إلا أن الضباط أبوا القيام به لتمرد العساكر وامتناعهم عن الانقياد إليهم، ولكن العساكر كذبوهم إذ صاحوا بأعلى أصواتهم أن رؤساءهم هم الممتنعون عن الهجوم لا هم، فلما سمع إبراهيم ذلك غضب غضبا شديدا، وترك ميمنة المعسكر عائدا إلى خيمته، وكتب إلى والده بما أحزن فؤاده، وقبل أن يسلم الرسالة إلى القاصد- وهو خاله أحمد آغا- تردد هنيهة متسائلا إذا كان عقله أو قلمه أضلا السبيل بتأثير حلم مزعج، ولكنها كانت الحقيقة التى لا ريب فيها.

كارثة فى معسكر إبراهيم باشا

فقد حدث بعد ظهر ١٦ شعبان الموافق ٢١ يونية أن

الوهابيين اشتبكوا مع المصريين فى معركة قتل وجرح فيها من هؤلاء ١٦٠ من بينهم ضباط امتازوا بالبسالة والحذق، فلما عادوا إلى المعسكر لالتماس الراحة من عناء هذه المعركة هبت ريح جنوبية من التى يندر هبوبها فى بلاد العرب من غير أن تكون مصحوبة بزوابع التراب والرمل، فحدث أن حملت فيما حملته جذوة نار من موقد كان عسكرى يصلح عليه طعامه، فألقتها على خيمة كبيرة منصوبة بين ربوتين عاليتين وفيها مستودع القذائف و٢٠٠ برميل بارود و٢٨٠ صندوق خرطوش وقنابل مستديرة ومستطيلة، فلما احترقت الخيمة اتصل اللهيب بالذخائر فانفجرت كلها، واحترقت بسببها أكوام هائلة من الشعير والقمح، وتتابع الانفجار باتصاله من برميل إلى برميل، ومن صندوق إلى صندوق مدة عشر دقائق، وانقلبت الخيام على ساكنها أو احترقت وصارت رمادا، فاحترقت الأجسام وصارت فحما أسود، وطارت أشلاء أجسام أخر فتنأثرت هنا وهناك، وتروع الباقون على قيد الحياة، وأصبح إبراهيم- الذى كان لا يتجاوز عمره عامئذ التاسعة والعشرين- بلا مؤن ولا ذخيرة

وسط الصحراء بعيدا عن مخازنه ومستودعاته الأساسية بنحو ٢٠٠ كيلو متر، وعاجزا عن الوقوف أمام عدو متفوق عليه فى العدد أضعافا كثيرة، وكل ما بقى عنده من ذلك هو ما احتوته جبائر العساكر، وما نجا من نار الحريق وهو لا يزيد على الـ ٣٠٠ القذيفة التى كانت مع البطاريات فالرزء كان شديدا، والمصاب جللا، والفتق متعذر الرتق، غير أن إبراهيم تلقى تلك النكبات بالصبر والثبات، وسرعة البديهة، وقوة الإرادة، ومضاء العزيمة، فكأنه لم يشعر بوقع الكارثة.

وكان أوزون على يقود النقط الأمامية، فبعث رجالا ليسأل الباشا هل استطاع استخلاص شئ من الذخائر؟ فكان جوابه: لقد فقدنا كل شئ إلا البسالة وسيوفنا، فبالبسالة والسيوف نستطيع الهجوم والانتصار، أما الانفجار فقد زلزلت الأرض من جرائه، وأحس الناس به من بعيد ومنهم أهل الدرعية، ورام عبد الله استقصاء الخبر فبعث ثمانية أو عشرة من كشافته لتسقط الأخبار وتعرف سبب الرجة الهائلة، وما يمكن أن يستفيده من الحادث، فصدهم المصريون إلى وراء بعد عراك عنيف

على أن الزعيم الوهابى وقف على الحقيقة، فعقد مجلسا كان من مظاهر ما استقر الرأى عليه أن أخرج فى اليوم التالى ١٥٠٠ من جنوده، فأيقن إبراهيم بحرج موقفه، فجمع فى الحال إليه عساكره ووقف وسطهم آمرا إياهم بأن يضنوا كل الضن بما معهم من الذخائر، وأن لا يطلق أحدهم رصاصة إلا فى مواجهة الخصم بحيث لا تخطئ الرصاصة مرماها، وأنذر كل متقهقر بالإعدام لا محالة، فلما أسفر الصبح انبثت الطلائع المصرية للاستكشاف والهجوم على العدو، فاستنفدت الخراطيش ولم يبق أمام الرؤساء إلا أن يتبعوا بالدقة أمر الباشا، ووقف هذا على ربوة فيها ثلاثة مدافع، وأرسل الضباط إلى جميع النقط يأمرون العساكر بترك العدو يتقدم نحوهم ومراعاة الاقتصاد فى إطلاق الرصاص، حتى إذا اقترب منهم كثيرا صعقوه بالطلقات، وكان من عيوب الوهابيين فى الحرب أنهم إذا خرجوا للقاء أعدائهم قاموا بحركات سريعة، ودنوا منهم فى أقل من لمح البصر بدلا من أن يجعلوا هذه الحركات فاترة ومتفرقة ليستنزفوا بذلك ذخائرهم، فلما دنوا على المثال المتقدم تلقتهم المدافع

بمقذوفاتها فحصدتهم حصدا ذريعا واضطرتهم إلى التقهقر.

ساء عبد الله هذا الفشل فارتأى ملازمة الدفاع، وعنى إبراهيم بحالة جرحاه ومرضاه الذين كانت علة أمراضهم شدة البرد فى الليل وشدة الحرارة فى النهار، وكانت الأمراض الأكثر تفشيا بينهم الدوسنطاريا والرمد الصديدى، وأصيب هو ذاته بالداء الأخير أياما لأن عنايته بأحوال عساكره حالا واستقبالا كانت تعوقه عن التماس الراحة لنفسه، على أن الآلام النفسية والجثمانية التى نزلت بالجيش المصرى لم تلبث أن زال الكثير منها وحل محله شفاء الأبدان من الأسقام، وشفاء القلوب من اليأس.

وصول الإمدادات إلى إبراهيم باشا

وقد أرسل مساء يوم الانفجار الرسل إلى الشقراء وبوريدة وعنيزة ومكة والمدينة فى طلب ما يتلافى به ضرر ذلك الحادث، وفى الواقع فقد وصل إليه بعد خمسة وعشرين يوما من طلبه ٢٠٠ من دلاة حامية عنيزة، ومعهم مائتا جمل محمل بارودا ورصاصا وقنابل،

وتواردت عليه القوافل التى ارتحلت من المدينة بذخائر من هذا النوع ومدفعين يتبعهما ٦٠٠ عسكرى، فتمكن إبراهيم بهذه القوة الجديدة من إخضاع القرى التى تمد الدرعية بالمؤن على ما يؤخذ من تقرير بعث به فيصل شيخ عربان مطير، الذى كانت مهمته إبعاد القبائل المعادية عن المعسكر المصرى.

شدة القتال بالدرعية

وفى ليلة ١٥ أغسطس خرج الباشا فى ألفى عسكرى ومدفعين فاستطلع الطريق مستترا بالظلام وخبر حالته، ولكن الجلبة التى نشأت عن جر المدافع وسير الجند وصهيل الخيول نمَّت عليه وفضحت أمره، فهب الوهابيون إلى مدافعهم يطلقونها فألحقوا بالمصريين خسارة لا يستهان بها، وأراد عبد الله فى اليوم التالى أن يغتنم فرصة غياب خصمه، فأمر بالخروج لمحاربة خط المحاصرين كله فاستمر القتال أربع ساعات تحت شمس محرقة، أبدى الفريقان فيها من البسالة ما يحمدان عليه وانتهى بصد الوهابيين، وشوهدت النساء فى هذه المعركة

يقتحمن خط النار وعلى رؤوسهن قدور الماء يحملنها إلى العساكر المدافعين، وذهب الطبيب (جنتيلى) ليسعف بعلمه الجرحى فى خيمة البكباشى إسماعيل آغا فأصابته قنبلة ذهبت برجله، فتولى بترها زميله (تودسكينى)، وفى اليوم التالى عاد إبراهيم من غزوته بعد أن استولى على بلدة (خرقة) وترك بها حامية من جنده، وبمجرد عودته إلى المعسكر زار الطبيب جنتيلى يصحبه فيسيير، وأظهر له من آيات العناية والرعاية ما جعله مطمئنا على مستقبل حاله، وتوارد وصول الأمداد وانضمامها إلى الجيش، ومنها ٤٠٠ من المشاة بقيادة البكباشى (باشو) ، وفرقة فرسان تتبعها قطعان الماشية والدواب الحاملة لذخائر الحرب، وانتهى إلى علم الباشا أن والده سير إليه مددا مؤلفا من ٣٠٠٠ راجل وفارس بقيادة خليل باشا حاكم الأسكندرية، ولكن إبراهيم باشا كان غيوراً على مجده، ويرى فى هذا المجد أنه حظية جميلة وديعة، لا يود أن يشاركه فى محاسنها أحد، فلما انتهى إليه هذا الخبر عول على ملاحقة الوهابيين فى معتصمهم الأخير، وإفنائهم عن آخرهم قبل وصول الإمدادات من مصر إليه، ولذا كاشف

جيشه بعزمه الأكيد على أخذ عاصمة الأعداء فى أقرب ما يمكن من الزمان.

فشل الوهابيين فى الدرعية

بدأت المدفعية بإطلاق القنابل، وتبعها المشاة بضرب الرصاص من عيون المعاقل الأمامية، وكان فيصل أخو عبد الله يستكشف فى طليعة فأردى برصاصة وعاد جواده راكضا نحو الجيوش الموالية، ووصل نعيه إلى أخيه عبد الله فتلقاه فرحا مستبشرا، إذ بلغ النعى إليه فى الصيغة الآتية: (لك أن تفرح يا عبد الله فقد عاد جواد أخيك من غيره لأنه صار فى جوار به)، فحمد الأمير الوهابى الإله سبحانه وتعالى وأثنى عليه.

واستفز إبراهيم باشا جنده إلى الهجوم بعد أن حشدهم تحت جنح الظلام وألقى عليهم التعليمات، وطالبهم باتباعها، ولم يترك فى المعاقل والحصون وعند البطاريات إلا من يكفى منهم لحفظها والقيام عليها، وأمر سلحداره وفرسان الأيشاغاسية بالكمون وراء جبل بالجهة اليمنى ليتمكن عند الحاجة من التقدم نحو مسيل الباتن

والهجوم عليه، وعهد إلى أوزون على لمراقبة حركات العدو وأعماله، وكانت القنابل والقذائف من كل الأنواع تخترق الفضاء، واتصل بالوهابيين من عيونهم خبر الهجوم فاستعدوا له من جميع نقطهم ومراكزهم، إلا أن إبراهيم عمد إلى جسر خال من مراكز للعدو فتمكن بواسطته من إيصال ٨٠٠ فارس إلى داخل الحدائق دون أن يشعر بهم أحد، فلما استيقظ الوهابيون من سباتهم وأدركوا أنهم مفاجأون لا محالة تركوا حصنا لهم، كان يحتوى ثلاثة مدافع، فتمكن المصريون عندئذٍ من تضييق الخناق على (غسيبة) والإحاطة بالقلعة التى كان يقود الوهابيين فيها سعد بن عبد الله بن سعود، وكان مع هذا الأمير الشاب ١٥٠ مقاتلا، ولديه مقدار وافر من المدافع والذخيرة، وإنما لم يكن عنده من المؤن الغذائية إلا كفاية يومين، فلم يسعه إلا التسليم فى اليوم الثالث حيث سلم الموقع وأسر، وقتل الأيشاغاسية وجرحوا عددا عظيما من الأعداء، منهم أقارب عبد الله كمحمد بن المقرى صهره الذى أصيب بشظية قنبلة، وكانت خسائر المحاصرين قليلة، ولكنه كان لا يمضى يوم إلا ويموت فيه عدد عظيم

منهم لامتناعهم عن تكبد العمليات الجراحية، على أن إبراهيم كان قريبا من الدرعية، فعين المواقع لنصب مدافعه التى زاد عددها بمقدار ما غنم من مدافع العدو، وشرع يقذف منها المقذوفات على الدرعية، ففتكت بالأهلين فى (سهل) و(غسيبة) ، وضربت منازل هذين الحيين، وعلت أصوات البكاء من النساء والأطفال فاضطر إلى التسليم بشرط أن لا يدخلهما الأمير المصرى، إلا إذا احتل حى طريف.

إعدام ابن زعيم الوهابية

ولم يكن فشل الوهابيين فى هذه المعركة والمعارك السابقة أعماهم عن الهاوية الفاغرة فاهاً تحت أقدامهم، فإن سعود بن عبد الله والى (درامة) عالج الخروج منها واقتحام خط الحصار، فتلقفته فصيلة الفرسان القائمة بحراسة الممرات والمضايق، وقد جئ به أمام إبراهيم باشا فوبخه على خيسه فى يمينه، وإخلاله بعهده الذى عاهده عليه من الإحجام عن محاربة المصريين، ثم أمر بإعدامه فرميت عنقه، ولم يلحق أصحابه أقل أذى.

زعيم الوهابية يرفع راية التسليم

ونظر عبد الله حوله فلم يجد من رجاله وحرسه الخاص المؤلف من ٤٠٠ سودانى سوى نفر قليل، وكانت الطرفية قد سلمت إلى المصريين وأخذت مبانى طريف تسقط تحت تأثير المدافع، فحض عبد الله قومه على المقاومة واستفز همتهم واستثار حميتهم، فلفتوا نظره إلى الحى وقد دك عن آخره ولم يبق فيه حجر على حجر، وضرعوا أن يحتفظ ببقية الأسوار ليواروا تحتها الشهداء من أبنائهم، وعلا الصياح واشتد الصخب، فلم يسع الزعيم الوهابى إلا أن يطرق برأسه إلى الأرض حزنا وخجلا، وأجابهم إلى ما طلبوه من الرضا بحكم القضا، فرفع راية التسليم والامتثال، وطلب الكف عن القتال.

وفى ٨ ذى القعدة الموافق ٩ سبتمبر وصل رسول من طرف الوهابيين، فلما دنا من المعسكر صدر الأمر بإيقاف الضرب، فوقف الرسول أمام إبراهيم ملتمسا بالنيابة عن أميره إيقاف رحى القتال وتعيين موعد للقاء الأمير ومفاوضته، فأجابه إلى التماسه.

ابن سعود يقبل يد إبراهيم باشا

وبعد ساعات حضر عبد الله فى مائتين من حرسه، وكان إبراهيم جالسا على صفة فى خيمته، فتلقاه بمظاهر الرعاية والود، وأراد عبد الله أن **يلثم يده** فأبى وسحبها منه تواضعا واحتراما، ثم أجلسه إلى جنبه ودار الحديث بينهما، فسأله إبراهيم لم ظل مصرا على المقاومة بينما الأهلون كانوا مجمعين على عدم فائدتها ويوافقون على التسليم والرضا بما جاء به القضا؟.. فأجاب عبد الله: لقد انتهت الحرب الآن وكان ما هو كائن بقضاء الله وقدره، فقال إبراهيم: لا يزال عندى الشئ الكثير من البارود والذخائر فاطلب ما شئت وهلم بنا نستأنف الصراع، فأجاب عبد الله: لا أريد شيئا من هذا، وإنما أسأل أن يحميك المولى، ولست أنت الذى أذلنى.. وإنما المذل والمعز هو الله، وخفت صوت الأمير وهو ينطق بهذه الكلمات وانهملت الدموع من عينيه.

فعزاه إبراهيم بقوله: إنه ما من بطل فى العالم إلا وبه نقص وضعف، وأن الكمال المطلق مستحيل على الإنسان فهو غير معصوم من نوازل القضاء والقدر، فقال عبد

الله: إنى أسألك الصلح **يا سيدى** أفتمنحه؟ فأجاب إبراهيم: نعم، وإنى لجاعلك الحَكَم فى شروطه، وإنما هناك أمر لا تصرف لى فيه إلا وهو بقاؤك فى الدرعية، فإن الأوامر الواردة إلىَّ من الوالى تقضى بتوجيهك إلى مصر.

فأطرق عبد الله هنيهة، وطلب إرجاء إجابته النهائية فى هذا الموضوع إلى الغد، ثم انصرف بعد القهوة والتدخين، ورد إليه ابنه سعد الذى كان أسيرا.

وكان المصريون قد استولوا على الدرعية ولا تزال منافذها الخارجية خارج قبضتهم، فخشى إبراهيم أن ينتحر عبد الله أو أن يلوذ بالفرار على إحدى هجنه الخفيفة السريعة، فأمر فرسانه بتشديد المراقبة عليه حتى لا يلجأ إلى أحد هذين الأمرين، وقد تولاه بسبب ذلك القلق فقضى ليله واقفا على قدميه.

ابن سعود أسير إبراهيم باشا

ولكن الزعيم الوهابى كان رجلا صادقا شريفا إذا وعد وفَّى، فإنه حضر فى الميعاد المضروب، فتلقاه بمثل ما تلقاه به أمس من البشاشة والإيناس، ثم سأله: بم جئت

اليوم من النية، فأجاب: أسافر إلى مصر إذا ضمنت لى النجاة، فقال إبراهيم: إذا كنت لا أستطيع التصرف فى إرادة الوالى فإنى لعاجز من باب أولى عنه فى إرادة السلطان، ولكنى أعتقد عن ثقة أنهما من كرم النفس وسعة الصدر بحيث يأبيان التنكيل بعدو سلم بنفسه إليهما.

فقال عبد الله: إنى واثق بكرمك يا إبراهيم فأوصيك بأولادى وإخوانى وأبناء وطنى خيرا وأطلب لهم السلامة جميعا قبلى، فتلقى عبد الله من إبراهيم منديل الأمان الأبيض الذى يشير إلى الصلح، وعاد إلى طريف كى يتجهز للسفر، فلما أتم معداته أقام بالمعسكر المصرى أياما كان كثيرا ما يرمى الطواف به أثناءها إلى مكان القيادة العامة فيقع نظر إبراهيم عليه، فيدعوه إلى تناول الطعام معه معاملا له معاملة الصديق، ومثل هذا فعل (البرنس دوغال) فى سبتمبر سنة ١٣٥٦ حينما كان يواسى (جان دى فالوا) فى مدينة (بواتييه) إذ كان يقول له: إنه إذا فاز عليه فما هى إلا رمية من غير رام، وأخذ يحبذ خصمه المغلوب ويطرى صفاته ويسليه بقوله: إنه قد جاء بكل ما كان مستطاعا وفى طوق البشر فعله،

وكان كثيرا ما يبرز من خيمته فيدعو أسيره إلى تناول الطعام، على مائدة جمعت الألوان الكثيرة من شهى الطعام بل بالغ فى إكرامه إلى حد أنه كان يقف خلف كرسى هذا الأسير ليقدم إليه بخضوع أصناف الأطعمة، فكان إذا اعترض واحتج قال: إنه لا يرى فى نفسه الأهلية التى تبيح له الجلوس إلى جانب شهم باسل مثله!.

ابن سعود فى طريقه إلى مصر أسيراً

وفى ١٤ ذى القعدة الموافق ١٥ سبتمبر ودع عبد الله ابن سعود أسرته الحزينة وأصدقاءه ومن دافعوا عنه حتى اللحظة الأخيرة، ثم ودع قصره المنيف بنظراته، وابتعد بخطوات متثاقلة يصحبه خازنداره وكاتب أسراره وبعض عبيد قاصدا بحموله إلى خيمة إبراهيم، فتسلم منه رسائل برسم أبيه محمد على، ثم أوغل فى الصحراء يحف به ٤٠٠ جندى بقيادة رشوان آغا، الذى أمر بمقاومة عبد الله إذا تحفز للفرار، وظل سائرا فاخترق أسيراً تلك الأرجاء التى كان يحكمها سيدا متصرفا، وقضى فى هذا السفر الذى اجتاز فيه نجدا والحجاز والبحر الأحمر شهرين

كاملين.

وفى ١٨ محرم ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ وصل إلى القاهرة، فجئ به إلى شبرا وقدم إلى الوالى **فقبل يده** وشرب القهوة عنده، فسأله محمد على عن رأيه فى الحوادث والحروب التى أصبحت اليوم فى حكم الماضى، فأجاب عبد الله: إن تلك الحوادث كانت مقدرة فى الأزل قبل أن يعلم بها إنسان، فسأله ما رأيك فى إبراهيم باشا وبم تحس به نحوه وما قولك فى خلقه وطبعه؟ فأجاب: إن إبراهيم قد قام بالواجب عليه كما قمنا نحن بالواجب علينا، وقد أراد الله ذلك وقضى به ولا راد لقضائه.

ابن سعود يسلم ما سرقه والده من الضريح النبوى الشريف

وكان بين يدى عبد الله صندوق صغير، فلما وقع نظر محمد على عليه سأله عنه، فقال: إن فيه الجوهرة الوحيدة الباقية من الجواهر التى أخذها محمد بن سعود والدى من الضريح النبوى، وكانت تحت يدى طول

الطريق التى سلكناها من نجد إلى هنا، لأننى وعدت بردها وسأسلمها إلى السلطان، ثم فتح الصندوق وهو مصنوع من العاج وأخرج منه ثلاثة مصاحف رصعت بالجواهر والأحجار الكريمة، و٣٠٠ لؤلؤة من أكبر اللالئ وأنقاها ماء، وزمردة يتصل بها شريط من الذهب، فقال محمد على: هذا حسن، ولكننى أعرف أن أشياء كثيرة غير هذه سلبت من الضريح النبوى، فأجاب: إن والدى أخذ منها حصته وهى ما أقدمه، أما الباقى فبيع بعضه، واقتسم بعضه أشراف مكة والآغوات ومشايخ العربان، وعليهم هم أن يقولوا أين أخفوا هذه البقية أو على أية جهة تصرفوا بها، فقال محمد على: الحق يقال لقد وجدنا كثيرا من هذه النفائس عند الشريف غالب ثم ختم الاثنان على الصندوق، وقال الوالى: دع هذه الجواهر معك يا عبد الله واحرص عليها كل الحرص، ثم اذهب لتسلمها إلى جلالة السلطان، فعسى أن يشفع لك لديه أصلها الشريف.

ابن سعود فى طريقه إلى الآستانة أسيراً

وبعد المحادثة ألبسه محمد على خلعة من السمور، ثم أسكنه ببولاق بيت ابنه إسماعيل باشا، ومنه أنزل فى قنجة أقلعت به إلى دمياط، حتى إذا كان يوم ٢٠ محرم الموافق ١٩ نوفمبر أخذ عبد الله سمته إلى الآستانة، ولم تتجاوز مدة إقامته بمصر ثلاثة أيام، وكلف بعض التتر بحراسته، ورافقه فى رحلته كل من خازنداره وكاتم سره.

إعدام ابن سعود بعد بيان التهم

وفى ١٦ ديسمبر وصل إلى البسفور، وكان محمد على قد التمس من السلطان العفو عنه، إلا أن رجال المابين كانوا لتعصبهم يرون وجوب معاملته بالصرامة، فطافوا به وبزميليه شوارع الآستانة ثلاثة أيام، ثم أعدموهم فى ميدان مسجد آيا صوفيا، ووضعوا على صدورهم كتابة بالجريمة المنسوبة إليهم ومما جاء فى هذه الكتابة:

(هذا ما حكم به على الشيخ عبد الله بن سعود الذى أسره إبراهيم باشا بن سمو والى مصر الحالى، وقد شاركه فى جنايته العربيان سرى وعبد العزيز بن

سلمان، ولذا وجب أن يقاسماه العقوبة، وكان عبد الله بن سعود قد أظهر منذ زمن طويل منتهى الوقاحة والعصيان، إذ كان يعذب ويحتقر الأنصار فى المدينة المنورة، وهم سلالة أولئك الذين نصروا النبى ﷺ بعد هجرته من مكة، كما عذب واحتقر المهاجرين من سلالة الذين هاجروا معه عليه الصلاة والسلام، وعذب واحتقر المجاورين، وهم أولئك الأتقياء والصلحاء الذين آثروا الإقامة فى مكة والمدينة للتبرك بجوارهم من الحرمين الشريفين، وكان يرى أن من الفضائل قتل المؤمنين والموحدين، وقد سد سبل الحج وقطعها على الحجاج بتغريره بمشايخ العربان، وقد اقتدى بمسعود المضيان وحسن الخلاجى والمضايفى وطامى وغيرهم من الذين أعدموا جميعا بين هذه الجدران، فسار سيرة مضادة للنواهى الشرعية الخالدة بتحريض القبائل على العصيان، وخيانته للإسلام والدولة).

وظل المتفرجون يقرأون هذه الجملة على صدور الجثث الثلاث بعد أن قطعت رؤوسها ثلاثة أيام متتابعة، وشاع بين الناس فى الآستانة يومئذ أن هذه الرؤوس أخذت وصحنت فى هاون الحكومة، وجعلت الجثث

الثلاث ملكا للشعب، ولسنا نظن أن النسورة والبزاة وثبت عليها كما وثب أهل الآستانة بفرح وسرور ينمان على طبيعة الوحشية المستقرة فى نفوسهم.

يرى مما تقدم أن إبراهيم قد فتح الباب بقوته الذاتية لمطامعه العظيمة، فإنه لما وصلت إلى المدينة الإمدادات التى أرسلها والى مصر كان لم يبق للأعمال الحربية مجال، فشعر خليل باشا قائدها بشىء من الخزى إذا هو عاد إلى مصر، كما جاء منها فرأى أن يهجم بجيشه المؤلف من ألفى راجل وفارس وعربان الشريف راجح على بلدة (أبو عريق) عاصمة (تهامة) فاستولى عليها، وبعث إلى القاهرة الأمير أحمد بن الشريف حمود، وخلفه فى الحكم على هذه البلاد، ولم يقم هذا الأمير فى مصر طويلا حتى أصيب بالجدرى وتوفى به، فلما نال خليل باشا هذا الفوز أرسل بأمر من السلطان لتولى باشوية مكة وفيها لقى حتفه بعد أشهر قلائل.

وأورثكم أرضهم وديارهم

ولقد أخطأنا الصواب حينما تركنا القارئ يستشعر بأن

سقوط الدرعية كان لابد أن يتلوه سقوط بلاد نجد كلها، فإن إقليم (الأريك) كان لا يزال حافظا استقلاله، ولكنه أرغم على تضحيته تحت تأثير المدفعين اللذين فتح السلحدار بهما أبواب (الحلوة) بعد مقاومة قليلة باسم إبراهيم. ولم يكن إبراهيم باشا ممن يستنيمون إلى ما أصابوه من الفوز فى الحرب فإنه لم يقف عند حد الوقائع السالفة بل وسع نطاق إجراءاته الحربية، فدخل الدرعية وأسكن منازلها فريقا من عساكره، وأنزل الفريق الآخر بالميادين العامة، وخصص القلعة التى أخذها من يد سعد بن عبد الله لإقامة المرضى والجرحى، أما هو فقد جعل معسكره العام فى طريف بالمكان الذى كان يسكنه زعيم الوهابيين، واختص نفسه بالاسطبلات الفسيحة ودار الصناعة الصغيرة التى كانت للأمير العربى، وترك لعائلته كل ما كان يملكه غير ذلك. وإذ صار المتسلط المطلق التصرف فى شئون الأمة النجدية فقد استفاد بما تخوله إياه حقوق الفتح، إذ عاقب بالصرامة القصوى الشيخين أحمد الحنبلى وصالح بن رشيد اللذين نيط بهما إبلاغ اقتراحات الصلح إليه أيام محاصرته للرس، لأنهما

كانا من القحة والتبجح بحيث خاطباه بلهجة العنف، ولقد أسف فيما بعد لأنه أطاع هواه، فأصلح الضرر الذى أصاب أحد الرجلين من جراء الشدة التى عومل بها، فأجرى عليه رزقا سنويا واختاره لتعليم مماليكه، وانطلق بعد ذلك يفرض المغارم على الأغنياء والسراة من أهل الدرعية، وعطل بمحض إرادته الأعمال الزراعية التى استأنفها الأهلون لاعتباره إياها الوسيلة الوحيدة للخروج من ضيقهم الشديد، وأمر بهدم قصور عبد الله والمساجد- مساجد ضرار التى تفرق كلمة المسلمين- وتدمير ما بقى من الأسوار والقلاع بعد الحصار، وأعطى الموالين له من العربان ٤٠٠ درع من الحديد وأسلحة كثيرة عثر عليها فى مغائر عبد الله ومخازنه.

أهالى نجد يطلبون الصلح

وخشى أهالى الأقاليم النجدية أن يحل بهم ما حل بالدرعية من التنكيل والخراب، فأرسلوا الوفود إلى إبراهيم فى التماس تقرير بالصلح، فكان أول ما اشترطه عليهم تقديم قدر عينه من المؤن والأغذية، لأن الجيش

كان ينقصه الكثير منها، ولم يكن فى الجهة التى يعسكر بها شئ مدخراً، فضلا عن أن العربان المعادين قطعوا الطريق على قافلة مؤلفة من ١٠٠ جمل تحمل الأرز والتمر، فلما لم يجد العساكر ما يقتاتون به تغذوا بنخاع الأشجار، واشتد القحط حتى تعذر على الخيالة وجود العلف لخيلهم، وأخذت الخيول تنفق تباعا من الجوع، وآلت الحالة بالجنود إلى أكل الحشائش التى كانوا يدوسونها بأقدامهم، ولم يطرق الآذان بعد ذلك سوى نداء واحد وهو: الخبز.. الخبز.. ومفهوم أن هذا الصياح إذا انبعث من صدر جندى امتلأ باليأس، كان دليلا ناطقا على قرب وقوع الثورة والعصيان.

إبراهيم باشا يؤدب المتمردين

رفض رؤساء الجند التصدى لتسكين المتمردين ولكنهم أحدقوا به للدفاع عنه، غير أنه لم يكن بحاجة إلى مثل هذه المظاهرة الولائية ليبق ثابت الجأش أمام الزوبعة، فقد حدث أن ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ متمرد تجمهروا بالقرب من المعسكر العام، فلما أبصر بهم إبراهيم عز عليه أن يكظم

غيظه، فعول على أن يسير حالا فى حراسة لتأديبهم ومقاومة تمردهم، وعبثا بذل أولئك الرؤساء سعيهم لديه ليحملوه على العدول عن نيته، ولكنه مال إلى ما تغريه نفسه من التهور والمجازفة، فاستل سيفه وسار يتبعه بعض الإيشاغاسية حتى بلغ إلى سطح واسع يتصل بمسجد قريب من مكان التجمهر، وفى الآن نفسه ظهرت فرقة من الفرسان بالجانب المقابل للمسجد عن طريق مسيل الباتن، فلما فوجئ المتجمهرون بهذه المناورة وقع الاختلاف بينهم والتردد، وأمر إبراهيم الفرسان بإطلاق نار البنادق عليهم فتفرقوا يلتمسون الفرار، ولكنهم فى هذه الأثناء ارتكبوا الكثير من الجرائم الفاضحة كالانقضاض على الحوانيت بالنهب، وعلى النساء المارات فى الطريق بسلبهم مصوغاتهن وجواهرهن، وساد الاختلال ثلاث ساعات أعيد السكون عقبها بعد أن قتل ثلاثون نفسا وجرح خمسون، وعند غروب الشمس أعدم اثنان من رؤساء الجند وضرب غيرهم بالعصى أو كبلوا بالأغلال ليزجوا فى السجون.

وفى الأيام التالية وصلت قافلة بالمؤن والأغدية،

وأرسل جيش من المشاة إلى عنيزة، وقصد إبراهيم إلى العارض فى طلب الأغذية والمؤن، فعاد منها بالشئ الوافر، واشتغل بتوفير وسائل النقل ليتقى بها وقوع المجاعة مرة أخرى، ثم أجلى مدفعيته عن الدرعية، وتوجه فى ألف من المشاة والفرسان إلى درامة، وعهد إلى مهر دراه محمد أفندى بزمام الحكم على نجد قبل مبارحته لها.

الشدة والقسوة فى معاملة الدرعية

فقام محمد أفندى بالمهمة الموكولة إليه طبقا للخطة التى رسمت لمعاقبة العاصمة الوهابية بأقصى ما يخطر بالبال من الشدة والقسوة، فإن هذا الحاكم الذى تجرد قلبه من عواطف الرحمة والشفقة أمر بقطع النخيل والأشجار جميعا فى دائرة يبعد محيطها عن الدرعية بأربعة كيلو مترات، وصرف الهمة إلى تدمير الدور وما لم يستطع هدمه منها أضرم فيه النار، فخرج السكان جميعا على وجوههم للفرار من النار والتماس مأوى يأوون إليه، والبعد عن منظر المزروعات تحصدها يد الفناء، وبعد أن

قام محمد أفندى بعمله الجائر تحرك بمن معه من الجند، فأدرك إبراهيم باشا فى الشقراء، حيث كان ينتظر للرحيل عنها عودة الجمال التى خرجت مع القوافل السابقة.

المؤامرة لقتل الباشا

ووصل الباشا بعد ذلك إلى درامة وفيها كاد يذهب ضحية لمؤامرة سوداء، بيانها أن أربعة من المماليك الذين شقوا عليه عصا الطاعة وتركوا المعسكر متشردين كان قد حكم علهم بالإعدام، كما حكم على غيرهم بالضرب بالعصى، وكانوا يرون بعد أن أفنت الأمراض والمعارك سوادهم الأعظم، أن الأصلح لهم إخلاء سبيلهم ليتمتعوا بحريتهم، فقرروا بينهم قتل الباشا ليلا، وتجريده مما معه من المال والفرار بعد إلى بغداد، وكان بين المتآمرين رجل اسمه (على) صار فيما بعد خازنداراً له، فذهب إلى إبراهيم وأطلعه على سر المؤامرة والغاية منها، فاستدعى إبراهيم فى الحال يوسف زعيم العصابة ثم أمر من كانوا عنده بالانصراف، فلما اختلى به أخذ يحد فيه نظره، وعالج نفسه حتى إذا ضبطها وملك عنانها تظاهر له

بالعطف، وقال له بلهجة التؤدة والسكون: (إنـــى قائـــدكم وسيدكم جميعا، فأنت وأعضاء العصابة التى تمالئك على جريمتك لستم إلا كفرة بنعمتى، ولقد كان فـــى نيتـــى أن أرفع رتبتك وأعلى قدرك ولكنك تريـــد قتلـــى) فحـــاول يوسف تبرئة نفسه من هذه التهمة وبـــالغ فـــى إنكارهـــا، فحنق الباشا من إصراره على الكذب والتكذيب، ووضـــع يده على مقبض سلاحه فما كان من المملوك إلا أن أخرج طبنجته وأطلقها على مولاه وانصرف محـــاولا الفـــرار، وكانت الرصاصة قد مرت بين رقبـــة إبـــراهيم وكتفـــه اليمنى، فهرول نحوه كيخيا الأميـــر وبعـــض ضـــباطه، وركض الحراس فى أثر القاتل الذى عثر فى طريقه أثناء فراره ببندقية فأخذها- وكان مـــسلحا مـــن قبـــل بـــسيف وخنجر وطبنجتين- فلما أيقن بأنه غير مفلت مـــن أيـــدى مطارديه عول على بيع حياته بأغلى ثمن، فاســـتند إلـــى شجرة وأخذ يدافع عن نفسه بغيظ وغل، ولقد أطلق عليـــه رصاص كثير ولم يصب برصاصة واحدة، ولكن الأخيرة أصابته فى مقتل فصرعته، وكان وهـــو طـــريح علـــى الأرض بل وهو يسلم الروح لا يزال يضرب بسيفه يمنة

ويسرة، غير أن طلقة نارية أخرى أجهزت عليه، فقطعت رأسه وألقى بها بين قدمى إبراهيم، وفـــى اليـــوم نفـــسه ضرب عنق أحد المتآمرين، وعوقب خمسة غيرهم فيمـــا بعد بالإعدام، ومنذ هذا الوقت منع المماليك من الخدمة فى خيمة الباشا، واستعيض عنهم ببعض العساكر النظاميين.

كانت الرسائل الواردة من محمد على باشا إلى إبراهيم باشا تأمره بمغادرة نجد والعودة إلـــى الحـــرمين، فلكـــى يحصل إبراهيم على الأغذية اللازمة له فى هـــذه الـــشقة الطويلة طاف بالصحراء أياما فى ألف من فرسانه، وكان حزب كبير من عنيزة بزعامة ابن مكلف قد اعتصم بجبل شمر فى موقع منه عزيز المرام، فقاوم العنيزيون هجمـــة المصريين مقاومة عنيفة جدا، وكان هؤلاء علـــى وشـــك الانهزام، لولا أن أثار الباشا حميتهم بما دعاهم إليه مـــن الاقتداء به فى بسالته وثباته، إذ أنه طوح بنفسه رغم كـــل صعوبة وسط العربان، وزج بـــه إلـــى ملحمـــة عنيفـــة بمنعرجات الجبل واقتفى المصريون أثرهم، ولكنهم كانوا ما برحوا يقاتلون أثناء انسحابهم تـــاركين مـــن ورائهـــم الماشية والخيام، وعلى أثر ذلك بـــادر الأهلـــون بتقـــديم

مطالب الجيش، ورأى إبراهيم أنه أصبح فى مركز حرج لأنه إذا فشل كان فشله عنوان فتنة عامة فى جميع الأقاليم

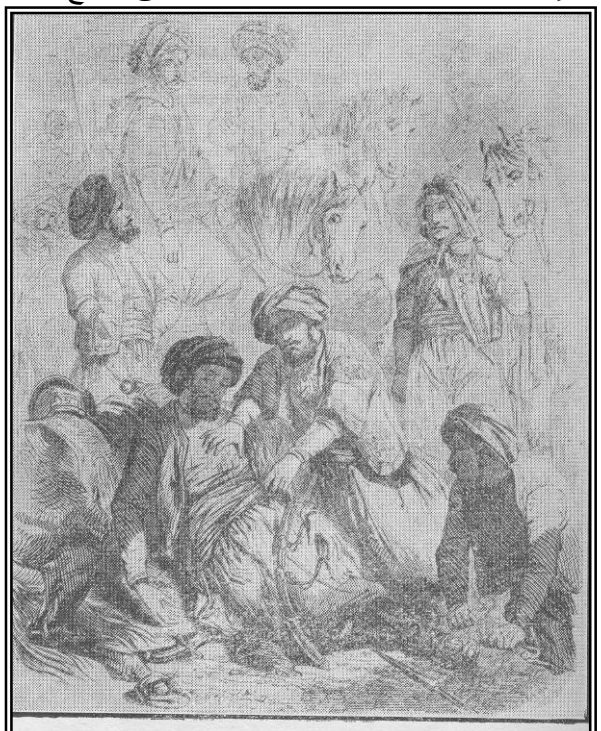

إبراهيم باشا يواسى الجرحى ويضمد جراحهم

ينال ضررها العساكر المصريين لتفرقهم فى جهات متنائية، وقد أمعن الباشا نظره فى ذلك المركز فارتأى أن خير الوسائل للخروج منه الثبات حتى النهاية، فصمد لأعدائه وما دنا منهم أحد لقتاله حتى لقى حتفه، وأصيب جواده بجرح بالغ فلم يفل هذا الحادث من عزمته، وبلغ من أمره أنه كان فى غيبة الأطباء يسعف الجرحى من العساكر بالعلاج.

الأمر بتدمير الدرعية

ولطالما خرج لغزو العربان فكان يعود من كل غزوة بالغنائم الكثيرة، ووردت عليه من والده نصوص الأوامر السلطانية القاضية بتدمير الدرعية، وجعل عالى أسوارها وحصونها سافلها، وإحراق بيوتها وإرسال أفراد أسرة عبد الله وأكابر الوهابيين وزعمائهم من سكان تلك المدينة إلى القاهرة، وأن يجتاز هو والجنود الظافرة البحر الأحمر عائدا إلى الديار المصرية.

آل سعود فى الأسر

فأرسل إبراهيم فهدا وسعدا وحسنا وخالدا إخوة عبد

الله وأربعمائة من الأعيان إلى ينبع تحت حراسة الجنود، وكانت السفن تنتظر فى الثغر وصولهم لتنقلهم إلى السويس، أما سعد ونصر ومحمد أبناء عبد الله وعمر وعبد الرحمن عماه فقد وجهوا مع قسم من المدفعية إلى المدينة ليرسلوا منها إلى القاهرة، وقد وصلوا إليها، فقرر لهم محمد على باشا المرتبات لمعاشهم بسخاء عظيم ليهون عليهم ذلك السقوط من عرش الإمارة، ويعوض عليهم بعض ما خسروه من أموالهم، وكان سفر جنود إبراهيم محفوفا ببعض المصاعب، لأن الهاربين من الجهات التى دمرت بسبب الحرب كانوا قد اتفقوا مع البدو على التلصص وإلحاق الأذى بالناس، وكانت الجمال التى تحت تصرفهم قليلة العدد، ولم يكن فى الوسع جمع ما يكفى منها بالنظر لتفرق الأهالى وتشتتهم فى الصحراء حفافى الخليج الفارسى، دع أن الوباء الناجم عن الحصر والمجاعة كان قد تفشى فى الناس، وأصيب به جملة من البكباشية، ولم يستثن من العدوى به القائد العام الذى ما كاد ينال الشفاء حتى جمع فى الدرعية شيوخ بريدة والشقراء والرس وعنيزة وأمرهم بتدمير الحصون

والمعاقل والأسوار فى أقرب ما يمكن من الوقت، منذرا المخالف منهم أو المتخلف بالإعدام، ثم وجه بفرقة من المشاة فى طريق العودة ومعها المدافع غير الصالحة للاستعمال، وقد كسرت قطعا لسهولة الحمل والنقل، واخترق إبراهيم الأقاليم فى أربعمائة هجان ليتأكد من تنفيذ الأوامر القاضية بتدمير الحصون والأسوار، ثم استأنف سيره إلى المدينة التى كانت الجنود قد سبقته إليها، وهناك بادر بزياة الضريح النبوى الشريف.

مفاوضات الإنجليز مع إبراهيم باشا

وفى سبتمبر سنة ١٨١٩ وردت الأخبار إلى إبراهيم باشا برغبة الكابتن (سادلييه) الضابط بالجيش البريطانى فى مفاوضته، وأنه لتعذر دخوله المدينة- بصفته مسيحيا- قد وقف غربها عند بئر على، فقصد الباشا إليه فى هذه النقطة، فعلم أن حكومة الهند الإنجليزية ساءها تكرر العدوان من سكان سواحل (الحسا) على السفن الماخرة فى الخليج الفارسى، وأنها ما علمت بأخبار حملة مصر العسكرية فى نجد حتى قررت إرسال أسطول حربى

لغرضين: حماية التجارة البحرية، وتحويل همة الوهابيين تحويلا يلائم مصلحة الحملة المصرية. ثم قال: إن فرقاطة واحدة وبضع سفن للنقل قد أنزلت ثلاثة آلاف جندى هندى إلى جون القطيف حيث أصابتهم الدوسنطاريا بسبب رداءة الماء، وأن قائدهم علم عندما وطأت قدماه جزيرة العرب أن دولة الوهابيين قد دالت وأن الدرعية عاصمتهم قد أصبحت أثرا بعد عين، فاعترته لذلك دهشة شديدة، إلا أنه ود أن يبلغ إلى إبراهيم باشا ما كان مرسوما للدوننمة الإنجليزية أن تقوم به من الأعمال المعززة له. فشكر الأمير له هذه النجدة التى لم يبق لها محل بعد، فعرض عليه المستر سادلييه خططا أخرى مؤداها عودته إلى نجد لاحتلال النقط التى انجلى عنها، فأرسل الباشا إلى والده ليوافيه بهذا الاقتراح ويسأله رأيه فيه، وقدم الضابط العسكرى إلى إبراهيم هدايا جليلة فى مقابل ما قدمه الباشا إليه من المؤن والمرطبات، وأظهره نحوه من جميل الرعاية، وجاء الرد من محمد على إلى المستر ساديبه مباشرة برفض ذلك الاقتراح، وإهداء جوادين كريمين إليه فى الآن نفسه، فاعتذر الضابط عن

قبولهما لأن حكومته لم تعطه ترخيصا خاصا بقبول مثل هذه الهدية، ثم أبحر بسفينته إلى (مخا) حيث كان ينتظره أمير الأسطول الإنجليزى الذى لم يلبث أن أخذ سمته إلى مومباى.

إباهيم باشا يؤدى فريضة الحج ويعود إلى مصر

وفى أوان الحج زار إبراهيم الضريح النبوى الشريف مودعا، ثم سار إلى مكة فطابق وصوله إليها وصول المحملين المصرى والشامى، فأخذ إبراهيم مكانه بين الحجاج كواحد منهم، إذ قام بفروض الحج ومناسكه وصعد فى جبل عرفات وضحى الثلاثة آلاف رأس من الغنم وفاء بنذره إذا هو أوتى الظفر، ووزع فى عودته من عرفات إلى مكة المكرمة الصدقات الكثيرة، واجتمع على أثر ذلك بجنوده الذين قرر سفرهم إلى ثغر ينبع للعودة إلى مصر، بعد أن ترك الحاميات العسكرية فى المدينة ومكة وجدة وقنفذة، ووجه إلى القصير المشاة والمدفعية والأمتعة والمهمات، وتقدم الفرسان فى الصحراء الممتدة بين القصير والنيل، ومعهم مائتان من

أكرم الجياد النجدية وأبحر إبراهيم من ينبع فـــى إحـــدى السفن وبصحبته سلحداره فخفق فؤاده حينما تـــراءت لـــه سواحل مصر، وما كادت تطأها قدماه حتى بعث قاصـــدا إلى والده ليبشره بعودته.

وفى ١١ صفر سنة ١٢٣٥ الموافق ٩ ديسمبر ١٨١٩ وصل إلى الجيزة حيث اجتمع بأسرته، بعـــد أن قـــضى ثلاث سنوات فى قتال الوهابيين قتالا عاد منـــه بأكاليـــل المجد والفخار.

الفصل الرابع

دراسة تحليلة

للمعسكرين المصرى والوهابى

وهنا مجال للقول بأن القتال بين الأميرين المـــصرى والنجدى كان من أجل مظاهر الشجاعة والبطولة، فإنهما ساقا إلى الميادين قوات كبيرة من الجنـــد كـــان التفـــوق العددى فيها للنجديين ولكن إبراهيم كان متفوقـــا بالمزايـــا العسكرية فعوض بها ذلك النقص، وكـــان عبـــد الله بـــن سعود إذا انبرى للقتال هماما مقداما، وإنما كـــان ينقـــصه صدق النظر والخبرة فى تدابيره الحربية والصلابة فـــى المفاوضات السياسية، وهذان العيبان إذا اجتمعا فى أميـــر بيده زمام أمور أمة ألحق بها الضرر الفادح، وكان عبـــد الله بن سعود شغوفا بفرض المغارم الثقيلـــة والـــضرائب الفادحة على أمته شديد الحرص على المال لا يكافئ بـــه أحد حتى العاملين لمصلحته، فكان من هذا الوجه نقـــيض أبيه، ولذا أكثر المبغضون له لشحه وضنه فهم يعملـــون

بمقتضى المثل العامى الشائع بمصر وهو (حبيب ماله حبيب ماله).

ونذكر فى هذا الصدد أنه لما ولى محمد على الحكم بمصر بدلا من خورشيد باشا الذى اعتاد التسويف فى دفع المرتبات للجند قال له- على ما ذكره الشيخ محمد بن عمر التونسى فى كتاب رحلته إلى دار فور-: (لقد خلعت نفسك بيدك حينما جاوبت الجند بقولك لهم: لن أدفع لكم شيئا، إجابة الواجب على ولى الأمر أن يكون سخى اليد كثير البذل، ألا تدرى أن كلمة (لا) قد تقلب كل شئ وتبدل حالا بحال غيرها؟).

ومما لا ينكر أن الجيش النجدى لم يكن تنقصه الصفات الكفيلة بالفوز، فإنه كان مطيعا بقدر ما كان باسلا وقنوعا بالقليل، بقدر تحمسه فى العمل وعدم كلاله من مزاولته، وإنما كان ينقصه قائد قدير على السير به إلى مواطن القتال، ملم بأساليب الحرب، بعيد النظر فى مصائر الأمور، حاضر الذهن لا يرد الموارد ولا يصدر عنها إلا وهو عالم بما فيها من الفائدة للمصلحة العامة، والظاهر أن الجرأة التى أظهرها المصريون منذ البداية قد

بهتته فأفقدته الرشد والصواب، وضاعف حيرته ما رآه من الوسائل والمعدات التى بنوها على ذلك، فإنها أضعفت ثقته فى المستقبل وتركت لليأس مسربا إلى فؤاده، وكان الواجب عليه أن يتخذ مركزا له فى حدود بلاده لقتال العدو المغير، وأن يؤثر الموت دفاعا عن هذه الحدود على أن يسمح له بتجاوزها والإيغال فى الداخل على غرة من الأهلين، وكان له من طبيعة الأرض وما يتخللها من الحزون والأوعار والجبال الشاهقة والفيافى المترامية الأطراف إلى أبعد مدى عونا ووزرا على النجاح، وكان فرضا لازما عليه بعد أن فرطت منه هذه الغلطة، أن يبذل همته لمنع وصول القوافل بالمدد المتوالى إلى الجيش المغير، وأن يقطع عليه خط الرجعة بشراذم من الخيالة يدربها تدريبا خاصا على مهاجمة المؤخرات ومناوشتها، ولكنه لم يفعل شيئا من هذا كله، بل ترك الفرص كلها تفلت من يديه فلم يستفد منها بشئ.

ولقد كان فى مكنته أيضا- وقد خسر هذه الفرص- أن يستدرك بعض ما فاته فى معركة الرس أو أمام أسوار الدرعية.

وهل ثم فرصة كانت أوفق لضرب المصريين الضربة القاضية من اليوم الذى فنيت فيه ذخائرهم عن آخرها بتلك الجذوة التى ألقتها الرياح السوافى عليها فأصبحوا ولا خرطوش معهم ولا بارود ولا وسيلة للخلاص من مأزقهم، وأن تلك الساعة لم تك فقط ساعة الخلاص بل ساعة القضاء عليهم، ساعة الضربة الشديدة بجماع اليدين.

لم يغتنم عبد الله فرصة ما من هذه الفرص التى أتاحتها له المصادفات والظروف ففشل فشلا ساعد على وقوعه، بل سببه أن التعليمات التى زود محمد على باشا بها ابنه كانت مبنية على الصواب والحكمة وبعد النظر، وأن سعودا كان فى العهد الأخير من حكمه قد فقد كثيرا من الصفات الفاضلة التى يمتاز بها الأمراء، القادرون على السير بين رعيتهم بالعدل، فإنه أعار أذنيه للوشايات فهام فى بيداء الأهواء الجائرة، وأطاع الشهوات المفضية إلى التحاسد والتحاقد والانشقاق بين جموع المشايعين من أهل المذهب الوهابى بل بين أعضاء أسرته أنفسهم، وفضلا عن كل ما تقدم فإنه كان قليل الإطلاع على

أساليب التصرف فى مصالح القبائل الخاضعة له وصيانتها، فنفرت منه القبائل الشمالية الذين اشتهروا بالفروسية، وكان باستطاعتهم مؤازرته بمعونتهم وتعضيدهم كما نفرت قبائل الجنوب، وهم أكثر القبائل تعرضا للغارات الآتية من الخارج، فضلا عما أوقعه بينهم من البغضاء والشحناء، فاغتنم والى مصر فرصة الاختلاف المستحكم بين أعضاء الأسرة الوهابية المالكة والضغائن المفرقة لوحدة القبائل، والجشع المتسلط على نفوسهم والدافع لهم فى الغالب على حب الكسب من طريق السلب والنهب والعمل بالكراء ليدبر شؤون الحرب، وفقا لما رسمه من الخطط حتى يخلص له زمام الحكم والتصرف فى جزيرة العرب ومستقبلها، وكانت نتيجة ذلك كله أن أذعن الوهابيون- وهم الذين ضربت ببسالتهم الأمثال- لمقتضى التدابير المصرية المبنية على الروية والنظر البعيد.

وكان مما زاد الطين بلة ما وقر فى نفوس الوهابيين من اعتقاد العزة والمنعة فى أسوارهم، فاستكانوا إليها واعتصموا بها ولم يهبوا من سباتهم العميق إلا وقتما رأوا

صواعق النار تكتسح الأسوار وتخيف النفوس، وثبت أن ذلك الاعتقاد لم يكن إلا ضربا من ضروب الغرور. وكان المحصورون يسخرون بالمصريين لأنهم (يضربون الأحجار) فكان المحاصرون يجاوبونهم على استهزائهم بقولهم: (المدينة المحصورة مدينة مأخوذة). ولكن هل جهل أولئك الناس ما اجتازه المغير قبل وصوله إلى تلك الأسوار، وأنه بعد أن عبر البحر اجتاز أقيانوسات عديدة من الرمال لا نهاية لآفاقها، وصخورا جرداء وجبالا شاهقة، وأنه إذا سرح الطرف حوله لا يرى إلا العراء والقحولة والسكون الشامل، فلا شجر ولا نبت ولا حشيشة خضراء ترتاح لرؤيتها العين، وإنما كانت الشمس المحرقة يضاعف سعيرها ما يتشعع من الحرارة الكامنة فى السهول الفسيحة التى لا غطاء لها من شجر أو سحاب، والرياح التى يشعر من تهب على وجهه أنها منبعثة من تنور تتسعر ناره. فمخترق تلك الصحراء كراكب سفينة تخترق نار الجحيم لا رجاء له فى الراحة ولا فى الرسو على ساحل الهناء.

تنبعث نظرات الناظر فى تلك الصحراء الجرداء فلا

يعوقها قط عائق عن النفوذ إلى منتهى الأفق، ولا ترى أمامها ومن خلفها وحواليها إلا سماء ملتهبة، وأرضاً محرقة، وصخوراً كالفحم المتقد، وليس فى مثل هذا المكان يحسن الانتظار ريثما تهطل السماء أمطارها الدورية التى يعقبها فى الهند الخصب العظيم والخيرات الوفيرة، فإن إقليم جزيرة العرب لا يستطيع الحياة فيه سوى صنفين من الكائنات: الصقر والبدوى. على أن هذا الجارح لا يزج بنفسه إلى أطراف تلك الأصقاع إلا إذا دعاه داع من دم بشرى سفكه هذا البدوى، تلك هى الصورة الحقيقية لتلك الأصقاع المحزنة على ما حفظته ذاكرة الذين رأوها رأى العين، بل هى تلك البلاد التى سماها الأقدمون بتسامحهم الأعمى (بلاد العرب السعيدة).

وقبل الأقطار التى سرنا فيها بالقارئ خطوة واحدة يوجد خليط من الأهالى هم من كثرة العدد بحيث لا يجوز لنا إنكار وجودهم، نريد بهم الجراد الذى عد فى الأزمان السابقة من الضربات العشر التى ضرب بها آل فرعون، نعم إن صعيد مصر يتردد عليه من هذه الكائنات كل سنة ما لا يقع تحت حصر ولا عد، وهى تقصد منه إلى سنار

والنوبة، وإنما يجوز لنا القول بأن البلاد النجدية، هى ولا فخر موطن تلك الحشرة الضارة التى من أقل أضـــرارها فى تنقلاتها الكثيرة بهذه البلاد إتيانها على كل خـــضراء، وغضراء فيها ولاسيما أوراق النحل.

وفى سنة ١٨١٣ كان المصريون قد أنفذوا طليعة من جيشهم إلى الطريق الذى سيسلكه، وكلفوها بحفر الآبـــار واستنباط المياه الكافية منها لحاجات العساكر، فلما شـــهد الوهابيون ذلك أرسلوا فى أثرها بعض خيالتهم لمنعها من القيام بالمهمة الموكولة إليها، وكان متعذرا على الجـــيش إسعاف تلك الطليعة وكف الأذى عنها، فلمـــا لـــم يـــنجح سعود فى سعيه سد بالأحجار جميع الآبار الموجودة بـــين الدرعية ومكة والمدينة، وهى آبار يقال أن الذين حفروها جيل قديم من الجبابرة، إلا الحديث العهد منها فقد حفـــره الوهابيون بما لهم من الشهرة بالعيافة، أى: تحديد أعمـــاق المياه بباطن الأرض بمجرد النظر إلى سطحها، والبحـــث فى النباتات النابتة فيها.

فخطة العدو هذه لم تكن فى شئ من حسن الـــذوق ولا المصلحة، إلا أن العامة الجاهلة أسندت إلى إبراهيم باشـــا

سد تلك الآبار النافعة، وقالت: إنه لم يكن له مـــن قـــصد سوى الانتقام بدليل تجاوزه مقتضيات الحرب فى القـــسوة والصرامة- على اتساعها- حتى جعل الـــصحراء علـــى اتساعها آهلة بجثث القتلى، فكأنه لم يجد وسيلة لقمع الفتنة أنجع من إغراقها فى دماء الأبرياء، ولم يبق لدى إبراهيم إلا اليسير من الجند مع ترامى أطراف البلاد التى يـــروم إخضاعها لشوكته، فلو أنه ترك فى كل نقطة فتحها حامية من جيشه الضئيل لانتهى الأمر به إلى أن لا يبقى معـــه سوى شرذمة تعد رجالها على الأصابع، وهذا ما حدا بـــه إلى تدمير الحصون المنيعة والمواقـــع المنيعـــة حتـــى لا يضطر إلى ترك حامية كبيرة فيها، وحتى لا تـــسد مـــن خلفه سبل الرجعة فتفسد الخطط التى وضعها لتكفـــل لـــه النجاح فى القتال، فالأطوار التى تقلب فيها- وهى محفوفة بالمصاعب والشدائد- لم يكن ليخرج منها سليما لو أنـــه أظهر شيئا من لين العريكة والتردد فى الهزيمة، ولا جرم فإن المراكز الحرجة يقتضى الخروج منها الإرادة القويـــة والعزم الماضى والرأى السديد، ويدا من حديد تستطيع فى مثل هذه البلاد النجدية صد تيار القبائل المتعصبة وصيانة

النظام فى جيش تحتك فيه العناصر المختلفة المتضادة.

الوهابية والوهابيون

ولننظر الآن فى شئ من أحوال الخصم، فنقول: إن محمد بن عبد الوهاب واضع أساس المذهب الوهابى جعل شارة مذهبه (الفوز أو الموت) فجمع تحت هذا العنوان القصير الوسائل التى تبيح له التعدى بالقتل على كل مخلوق لا يرتضى الوهابية مذهبا له، وكان عبد الوهاب يرى أن القرآن أمر بقتال الكفار حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية، وكان فى بعض القبائل لا يستطيع تحديد شروط الزواج أمام فقير، ولا مطالبة فتاة بقبول الزواج ما لم يلوث رمحه بدم المعركة[١]، وكان يقول: (إن الله قلدنا السيف لتأييد وحدانيته ضد الكفار، وإننا وقد اعتقدنا بالله القادر على كل شئ، وبسر التكبيرة القدسية- الله أكبر! الله أكبر!- التى تلقى الفزع فى قلوب أعدائنا يوم القتال، فإننا نتقدم إلى الأمام فيقع العالم تحت سطوتنا).

(١) أى: افتض بكارتها.

كان يقول ذلك مفتخرا، ولكنك إذا ذكرته باستحالة المقال عليه قال: (مهما تكن قوتك إجابة الله وحده هو المولى القدير وفيه ينحصر كل رجائنا، إنا إذا دافعنا فإنما ندافع عن عقيدتنا، وهى دين الله الواحد الأحد، فالأحسن لنا أن نموت فى سبيل هذا الدين من أن نعيش خارج سياجه).

وكان إذا جندل الوهابى بطعنة ثم أشرف على الموت ووقع نظره أثناء ذلك على الظافر الذى أورده هذا المورد قطب وجهه ثم أسلم الروح إلى بارئها، وإذا أتيح له أن يتكلم فما هو إلا ليلعن أو ليستنزل غضب الله ومقته.

الوهابية قتلة المسلمين

وقد سئل أحد شيوخ الوهابيين لم لا تميزون إذا استوليتم على بلد بين أهليه من مسلمين ومسيحيين ويهود بل تقتلون الجميع على حد سواء؟، فقال: (إنك إذا أردت أن تطحن حنطة رأيت فيها بعض حبات من الحمص والفول أفلا تلقى الكل فى الطاحون حتى لا تكلف نفسك عناء تنقية الحنطة مما اختلط بها من الحبوب الغريبة).

ويؤكد هذا القول الذى ينم على فطرة وحشية وقلة اكتراث بالحياة الإنسانية أنه لم يذكر حالة واحدة أثناء السنوات الأربع التى انقضت فى الحرب بين نجد ومصر تدل على أن نجديا أشفق بعدوه، أفبعد هذا يستغرب أن يجعل قطع الرقاب والإحراق بالنار عقوبة لمن عمدوا إلى النار والحديد فى التنكيل بغيرهم؟.

إن من عادة الحروب التى يؤجج نارها التشيع للمذاهب أن يطول أمد ضرامها فلا تخمد إلا بعد زمن، وأن يسمى المهجوم عليهم منهم بالمظلومين المغبونين المعذبين، وأن يسمى القتلى بالشهداء، وهى أسماء مبرقشة بألوان خداعة فتانة لمن تحدثهم نفسهم بالمشايعة، ولقد حاول أشياع المذهب الوهابى النهوض من عثرتهم، فهبوا للعمل فى سنى ١٨٢٤ و١٨٢٥ و١٨٢٧ و١٨٢٨ و١٨٤٢، ولكنهم لم يرفعوا رؤوسهم فى سنة من هذه السنين إلا وخيل لهم أنهم يسمعون اصطفاق أجنحة ونقر مناقير، فأرسلوا نظرهم فإذا بالطيور الجارحة تبتز من الهياكل التى جففتها الشمس، والعظام التى ابيضت بطول الزمان ما بقى فيها من غذاء، وإذا بأشباح إخوانهم الذين

قتلوا خلال الحرب الماضية تتحرك أمامهم، وإذا بهم يشعرون بالأرض وقد زلزل من تحت أقدامهم زلزالها، فلا يلبثون أن يفيئوا إلى ما كانوا عليه من الاستكانة والسكون (١).

(١) حتى تمكن عبد العزيز آل سعود من تكوين الدولة السعودية الثالثة سنة ١٩٠٣م بمعاونة الإنجليز وحمايتهم، فبدأ فى تنفيذ مخطط الانتقام من مصر، بتكوين جماعات تدين بالفكر الوهابى هى: أنصار السنة المحمدية ١٩٢٦، الإخوان المسلمون ١٩٢٨، وتحويل مسار الجمعية الشرعية من التصوف إلى الوهابية ١٩٢٦، مع دعم هذه الجمعيات بالمال والكتب المجانية؛ لإحداث حرب أهلية بين المصريين انتقاماً منهم.

الخاتمة

نتائج الفتح بمصر والآستانة

ولنعد الآن إلى الكلام على نتائج سنة ١٨١٩ فنقول: إن إبراهيم باشا بكبحه جماح الوهابيين وثله عرشهم قد أعاد مياه العلاقات التجارية إلى سابق مجراها، وخلص الدولتين العثمانية والفارسية من القلق الذى استحوذ عليهما، ووقى الإسلام خطر السقوط فى هوة الخلل والفساد، فلا جرم إذا أعجب بفتوحاته شعوب آسيا وأوربا، واتجهت إليه أنظار العالم السياسى، وتأيدت شوكة العرش المصرى فى الخارج كما تأيدت فى الداخل، ولقد أنعمت الدولة العلية على محمد على وإبراهيم باشا ابنه بأسمى مراتب الباشوية فى المملكة العثمانية، وضربت بعبقرية الأول فى سياسة شؤون الدولة وسن القوانين لها الأمثال بين الشعوب، كما سارت الركبان بذكرى نبوغ الثانى فى العسكرية والبسالة الذاتية فى القتال، حتى نجم عن ذلك أن العرب شبهوا إبراهيم باشا بأبطالهم العظام، وأوردوا سيرته فى القصص والروايات،

ورفعوه فوق بطلهم الحديث الذى لا يكفون عن الترنم بذكره أولا وهو (جدوة بن غيان الشمسى) الذي يفتخرون بأنه ما تراجع قط أمام عدو، وأنه شق فى يوم واحد صدور ثلاثين من أعدائه، ولو لم يكن عنترة عبد رق لشبهوا الفاتح إبراهيم باشا بهذا البطل الشهير فى التاريخ.

كانت قد مضت أشهر طويلة ولم يصل إلى محمد على نبأ من ابنه عن نتائج حروبه فى نجد، وأصيب فى أكتوبر سنة ١٨١٨ برمد صديدى اشتد بسببه قلقه وكربه، فأوعز إلى المشائخ بالصلاة والدعاء لله أن يكلل بالفوز مساعى ابنه، وبتلاوة البخارى كل يوم فى مسجد الأزهر، فما هى إلا أيام حتى تبدل كربه بالفرج، وحزنه بالفرح الشديد، فقد أبلغه عثمان آغا والى ينبع ومحمد أفندى كاتم أسرار إبراهيم خبر الاستيلاء على الدرعية، فأطلقت المدافع فى يوم ١٨ أكتوبر إيذانا بهذه البشرى وأقيمت الأفراح والزينات سبعة أيام، ذهب محمد على بعدها إلى الأسكندرية فاستقبل فيها بأفخم مظاهر الاحتفال، وتنافس الإفرنج فى إقامة معالم الزينات على مثال لم يسبق له فى البلاد نظير، إجلالا وإعظاما لقدر الأب وتقديرا وإعجابا

بأعمال الابن، ولما كان من فطرة القلوب إذا نالت مبتغاها أن تكون الرحمة أميل منها إلى الشدة، فقد قابل التهنئة التى بعث بها السيد عمر مكرم المنفى فى طنطا بالإذن له بأداء فريضة الحج، واستدعاه لهذا الغرض من منفاه، وأكرم مثوى محمد بك أبو نبوت والى يافا المعزول، بأمر المابين، وبالغ فى إكرامه إلى حد أن رتب له من ماله الخاص ستة وثلاثين كيسا شهريا، أى: ٤٥٠٠ فرنك، ثم صالحه على الصدر الأعظم، وحصل له على الإذن بالعودة إلى وطنه، وإسناد إحدى الوظائف فى حكومة الدولة إليه.

وفى أثناء إقامة محمد على بالأسكندرية وافته بشرى انشرح لها صدره، فقد جاءه زائر بلباس من القماش، ورداء أبيض وقفطان من الجوخ، وعباءة وحذاء من الجلد، وشال مسقطى تعمم به وتساقطت عذباته على صدره، وجعل فوق العِمَّة منديل قطن معلم بخطوط حمراء وخضراء هبطت أهدابه على كتفيه، فلما وقع نظر الوالى على هذا اللباس الغريب سره حسن منظره، وتوافر الشبه بين لباسه ولباس الوهابيين، ولكن من ذا الذى كان

يلبس هذا اللباس، هو ملازم ركاب إبراهيم باشا فسيير الفرنسى الأصل، جاء ببشرى وصول الأسرى الذين

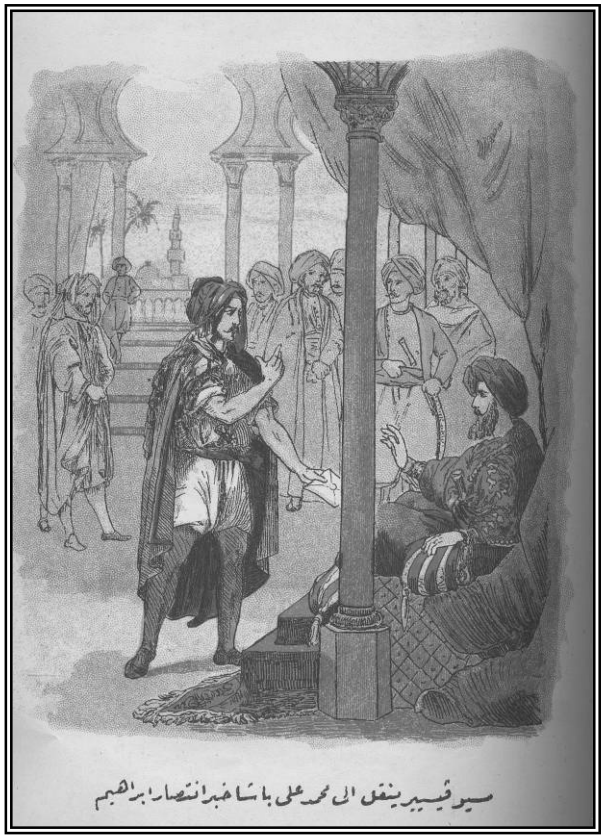

أخذوا فى المعارك المختلفة، وكان يحمل رسائل برسم محمد على باشا من قائده إبراهيم، وكان هذا قد أوصاه بأن يمثل بين يدى والده بثياب الوهابيين لينوب عنه فى إخباره بما أحرزه الجيش المصرى فى الفخر والمجد، وأراد محمد على أن يشكر لابن جلدتنا الخدم الجليلة التى قام بها، فأهداه من القمح والأرز والقطن ما يعدل ثمنه خمسين ألف ريال، وأهداه غير ذلك ثوبين من الثياب العثمانية وشالين كشميريين ليتخذ من أحدهما عمامته ومن الآخر حزامه.

وعاد محمد على إلى القاهرة فى ٢٥ مارس ١٨١٩ مصحوبا بقابجى الباب العالى الذى كان قد وصل من الآستانة ليقدم إليه من طرف جلالة السلطان تذكارا نفيسا لانتصاراته الجليلة فى بلاد العرب وهو ساعة وخنجران وريشتان من الماس وسموران من أنفس السمور واحد منهما برسم إبراهيم، وكان على يد هذا القابجى مرسوم سلطانى بترقية عباس بك حفيد محمد على، وأحمد آغا بن طاهر باشا إلى رتبة الباشوية ذات الذنبين.

كل هذا مع التصريح له بالإنعام برتبة القابجية على

من يريد فأنعم بها فى الحال على حسن آغا الأزرنجلى، وشريف بك ناظر المالية، وخليل آغا، وعلى بك.

مظاهر الفرح بعودة إبراهيم باشا

وفى ٢٥ صفر ١٢٣٣ الموافق ١١ ديسمبر ١٨١٩ وصل إبراهيم من بلاد العرب، فاستقبله فى قصر شبرا كبار رجال الحاشية وعظماء قواد الجيوش بجنودهم والآغوات والأعيان، فتقدم يحف به ذوات مصر، وتتقدمه الأذناب الثلاثة المرموز بها لرتبته، وإثنى عشر جوادا مطهمة ومغطاة بأغطية مزركشة بأسلاك الذهب، وكان دخوله القاهرة من باب الفتوح، فظل سائرا حتى صعد إلى القلعة الصلاحية (١)، وكانت الحوانيت والشرفات والطنف والنوافذ مزينة بأجمل الزينات، والأهلون يسيرون أفواجا فى الطريق، فكان كلما تراءى لفوج اختلط تصفيقهم وهتافهم له بدوى البنادق والمدافع.

وبالجملة فقد شهد سكان العاصمة المصرية جميعا هذا

(١) قلعة صلاح الدين.

الاحتفال الجليل إلا رجلا واحدا التمسته الأنظار فى مظان وجوده بين الجموع الكثيفة بل التمسته القلوب فلم تجده، ذلك هو محمد على باشا.

حقا إن والى مصر عرف بالهمة والعزيمة، ولكنه لم يأنس من نفسه القدرة على الاحتفاظ برصانته أمام هذا المنظر السار، فأراد بتغيبه أن لا يؤثره أحد على ابنه بشئ من الهتاف ومظاهر الحفاوة التى كان إبراهيم جديرا بها، فلهذا اكتفى بأن يتخذ له فى مسجد السلطان الغورى مقعدا بسيطا شهد فيه الاحتفال الباهر، كما شهده غيره من مطلق الناس، فلما أوشك أن يمر أمامه بسط يديه لله شاكرا حامدا مثنيا، ثم وضعهما على صدره حتى لا ينفجر من طفرات قلبه الطافح بالسرور، ثم نظر الناس حولهم لدى مرور إبراهيم أمامه فلم تقع أنظارهم على والى مصر وإنما وقعت على الوالد الذى غمره هذا المنظر فى بحر خضم من السعادة والسرور، فأسقطت دموع الفرح من عينيه، وفى اليوم التالى تواردت الوفود على إبراهيم يهنئونه ويقدمون إليه الهدايا الجليلة من الكشامير والأشياء المشغولة بالذهب والفضة والأحجار

الكريمة واللآلئ والنفائس، وقد أحصيت قيمة ما قدم إليه فى ذلك اليوم فإذا بها تتجاوز ستة آلاف كيس، أى: ٧٥٠٠٠٠ فرنك، واستمرت الأعياد سبعة أيام بلياليها كانت الشوارع والميادين العامة فيها مزينة بالأنوار الزاهية والمصابيح المتلألئة، وأخذ الناس يطوفون شوارع القاهرة ويزورون أسواقها، ويذهبون إلى بولاق حيث كانت الزوارق أمامها مزينة بالأغصان المورقة والأزهار المونقة، وتتهادى على النيل بين طلقات المدافع المصفوفة على الضفتين.

الأفراح بالآستانة

وبلغت أنباء هذا الاحتفال إلى الآستانة العلية على يد مبعوث خاص أرسلته الحكومة المصرية، فلما وصل هذا المبعوث سار بين جماعات من الأهلين قد اصطفوا على عطفى الطريق، وقد ألبسه القائمقام خلعة من أعلى الخلع وأغلاها قيمة، وقصد السلطان ووزراؤه وقبطان باشا وقابجى باشا وكزلار آغاسى وقبو آغاسى وجميع العلماء والقواد العساكر وكبار الموظفين فى المعية السلطانية

والحكومة العثمانية والخصيان السود والبيض إلى مسجد السلطان أيوب فى موكب جميل وهيئة جليلة، وهناك حمد المفتى الله تعالى وأثنى عليه إذ عاقب الذين دنسوا مقام إبراهيم، وأعاد إلى سلطة الخليفة الحرمين الشريفين.

وعاد السلطان إلى قصره فجلس فى قاعة العرش فتوارد العظماء للسلام عليه وتهنئته، وظلت الحفلات مقامة فى الآستانة سبعة أيام، كانت مدافع السراى الشاهانية والدونمة والمدينة تطلق من خلالها صباحا وظهراً ومساء، وكان السلطان ورعاياه يخرجون صباح كل يوم ليركبوا القنجات أو الخيل للنزهة.

وبينما كان اسم إبراهيم تردد صداه أركان المملكة العثمانية ويعجب العثمانيون بشجاعته، ويحمدون عمله ابتلاه الله بمحنة من محنه حتى لا تنبعث نفسه بالكبرياء والصلف، وليعلمه الله أن الرؤوس مهما ارتفعت عزة ومجدا فلابد لها من الانخفاض يوما، وأن الناس مهما علت مراتبهم فإنهم غير معصومين من فتكات الموت.

محنة إبراهيم باشا

كان إبراهيم قد اشترى من المدينة جارية فارسية فرزقت منه بغلام، فبعد أن سقطت الدرعية بأربعين يوماً وصلت إليه الوالدة والولد فى تختروان (يشبه الهودج) محمول على جمل يحف به ٤٠٠ فارس، ليكافئاه على أعماله الجليلة بقبلاتهما. وكانت عربة الباشا قد أخذت الطريق نفسه يجرها أربعة بغال للعودة، فلما التقى بابنه وزوجته أخذهما فى مركبته، فأراد الله عندما وصلوا إلى المدينة أن تموت الزوجة على أثر وضعها غلاما آخر توفى بوفاتها، فعهد إلى كيخياه العناية بعثمان بك ابنه الأكبر أثناء السفر إلى السويس، واتفق عقب الوصول إلى هذا الثغر أن الأمير الصغير كان نائما فى حجر جاريته السودانية إذ أصيب فى ركبته بضربة شديدة خطأ من يد امرأة بيضاء كانت تقصد باعتدائها الجارية السوداء فتوفى على الأثر، فجاء هذا المصاب بعد مصابه الأول بفقد زوجته وابنه الأصغر ضغثا على إبالة، وناله من جرائه حزن شديد، بينما كان هو يملأ قلب والده بعودته سرورا وفرحا.

على أنه ما من والد أو والدة أو زوجة إلا وقد ناله مكروه، كما نال إبراهيم بفقد عزيز عليه، فبكى الوالد والوالدة ولدهما، والزوجة زوجها وصاحت، والوجد على فقيدها يضنى فؤادها، يا سبعى! يا جملى! يا مصيبتى.. إلخ صيحات العويل والانتحاب، ذلك لأنه ما من أحد أصيب بفقد عزيز عليه إذا وقد ضاع منه الأمل فى رؤيته، لاسيما إذا أثار المعزون ثائرة الوجد فى نفسه بتعزيتهم إياه بمثل قولهم: عوضك الله خيرا.

أما الذين لم تدفن جثثهم فى رمال صحراء نجد فقد قرت بعودتهم أعين وابتهجت أفئدة، نعم إنهم عالجوا من المصاعب واقتحموا من الأهوال الشئ الكثير، ولكن فى عودتهم مكللين بأكاليل الظفر ما يخفف عنهم عبء ما تكبدوا.

التبرك بالعائدين من الجهاد

طابقت عودتهم إلى مصر شهر صفر من السنة وهو الشهر الذى يعود فيه من مكة المحمل الشريف، ولا يذهبن الاعتقاد بك إلى أن الحجاج العائدين استأثروا

وحدهم بتوقير الجمهور ونظره لهم بعين الإجلال التى ينظر بها من يقومون بمناسك الحج وفروضه، فثمة أولئك الأبطال الذين ما بلغوا أربهم من كبح جماح الوهابى، وقمع شيعته وتعطيل مذهبه إلا بعد معاناة الشدائد من حرمان مهلك، وسير فى القفار وأوعار الجبال، تراهم بعد عودتهم يطوفون الشوارع والأسواق فى سكون ووجوم، وربما نام البعض منهم وهم جلوس على القهوات، فإذا شهدت عجوزا قد عمدت إلى الاحتكاك بأحدهم، فما ذلك إلا للتبرك به، أو الشفاء من مرض أصابها اعتقاداً منها بأن الذى يستنقذ الحرمين الشريفين لجدير به أن يكون من الأولياء والصالحين، هذا الاعتقاد هو بلا شك باطل وخرافة عند الوهابية، ولكن ألم نر عساكرنا الفرنسيين وقد عادوا من إفريقية إلى وطنهم والعرق يتصبب من جباههم، والصدور مجللة بالجراح الدامية، والشوار ممزقا بالرصاص، والأعلام كالخرق البالية موضعا للتبجيل والتعظيم والتوقير والتكريم؟!!.